



الدين العالمي

ومنهج الدعوة إليه
لفضيلة الشيخ عطية المقدر
عضو مجمع البحوث الإسلامية

سلسلة البحوث الإسلامية

السنة الثامنة عشرة - الكتاب الخامس

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF
ART AND HISTORY
NEW YORK

THE
LIBRARY OF THE
MUSEUM OF
ART AND HISTORY
NEW YORK

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف
المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
أما بعد : فنقدم للقراء الطبعة الثانية من كتاب :
« الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه »

الذي يتحدث عن عالمية الدين الاسلامي وصلاحيته
لكل زمان ومكان ، على الرغم من أن الرسول الذي
أرسل به عربي ، والكتاب الذي أنزل عليه أنزل باللسان
العربي ، فهو عليه الصلاة والسلام كما قال عنه ربه :
« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، والكتاب كما قال
عنه سبحانه : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده
ليكون للعالمين نذيرا » .

وهذا الكتاب الذى نقدمه يؤكد هذه الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك ؛ وذلك من واقع النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ليزداد المؤمن ايمانا ، ومن واقع العوامل الذاتية التى رشحت هذا الدين ليكون ديننا عالميا ، وليكون حجة الله على من يتطلعون الى دين يلائم الطبيعة البشرية ، ويساير تطور الحياة الفكرية والعملية ، ومن الواقع التاريخى الذى أثبت جدارة الاسلام بهداية البشرية الى أقوم الطرق ، حيث تقبلته كل الأجناس ، وعاش فى كل البيئات ، وما يزال غضا طريا على الرغم من تعاقب الأجيال .

والكتاب ينبه الى خطر الجبهات التى تحاول أن تقلص من ظله ، وتحد من مده ، وسنرى من خلالها أن بعض المعاصرين يثيرون من الشبهات ما أثاره الأعداء منذ مئات السنين ، وتكاد الألفاظ التى تجرى على ألسنتهم تطابق تماما ما قاله أولئك المغرضون .

وهو إذ يبرز أن الاسلام هو الدين العالمى الوحيد الذى يلبي حاجة الانسانية فى هذا العصر وفى جميع العصور ، لم ينس أن يصنع المنهج الصحيح للدعوة اليه ، من واقع النصوص وهدى السلف وتجارب العصر ، حتى لا يقحم نفسه على الدعوة من ليس أهلا لها ، وحتى لا تشوه الصورة النقية للاسلام من سلوك بعض من لا يحسنون الدعوة اليها .

والكتاب في صورته المصغرة المنتقاة من مؤلف ضخّم في هذا الموضوع ، شاهد صدق من الشواهد الكثيرة على أن الأزهر الذى ظل منارة الثقافة الاسلامية أكثر من ألف عام ، لم يغب عن الساحة مطلقا ، فهو بجميع هيئاته حاضر يتفاعل مع الأحداث ، ويشق طريقه فى الإصلاح بكل ثقة وصبر ومصابرة راجيا من الله المثوبة ، وداعيا للأمة الاسلامية أن يلهمها الله الرشيد حتى تعود الى الدين الذى يخرجهم من الظلمات الى النور ، وصدق الله العظيم إذ يقول : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » وبالله التوفيق ، ، ،

الأمين العام لمجمع البحوث الاسلامية

أ . د . عبد الفتاح بركة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فقد اقتضت حكمة الله تعالى ألا يدع عباده يسرون في الحياة على غير هدى ، ولا أن يتركهم لعقولهم التي قد تغلبها الأهواء فتضل وتغوى ، فأرسل اليهم رسلا حدد مهمتهم بقوله : « رسلا مبشرين ومنذرين » (١) ، وبين حكمة إرسالهم بقوله : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ، وكان في كل جماعة من الجماعات البشرية الهامة من يرشدها كما قال سبحانه : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » (٣) ، وكان هؤلاء المرشدون من الكثرة بحيث قال الله فيهم : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين » (٤) ، على ما تفيد «كم» الخبرية من التكثر ، وكفانا مئونة عددهم فقال :

(١) ، (٢) سورة النساء : ١٦٥

(٣) سورة فاطر : ٢٤

(٤) سورة الزخرف : ٦

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » (١) ، وبين المقصد الأكبر من بعثهم فقال : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » (٢) ، فقد وجهوا اهتمامهم أولا الى إصلاح العقيدة ثم الى إصلاح ما يرونه في حاجة الى إصلاح من السلوك .

ومما لا شك فيه أن البشرية في تغير دائم ورقى مستمر ، وأن المشاكل تزداد تعقدا كلما تعقدت الحياة وكثرت مطالبها ، ولهذا كانت النظم والشرائع التي جاءت بها الرسل في تغير وتطور ، ما يصلح منها لجماعة لا يصلح لأخرى كما قال سبحانه : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (٣) .

والقرآن الكريم حين تحدث عن هذه الرسائل تحدث عنها في إطار الخصوصية للأمم التي جاءت إليها ، فكل رسالة لأمة لا تكلف بها أمة أخرى ، وكل شريعة ينتهي عهدها بانتهاء من جاء بها ، كما قال سبحانه : « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » (٤) .

(١) سورة غافر : ٧٨

(٢) سورة النحل : ٣٦

(٣) سورة المائدة : ٤٨

(٤) سورة الصف : ٦

وكانت الإنسانية من عهد بعيد تستعد لطور جديد من الرقى الفكرى والاجتماعى ، والى رسالة تتناسب مع ما بلغته من نضج ورشد ، كما كان العالم قبيل ظهور الإسلام فى حاجة ماسة الى من يأخذ بيده مما ارتكس فيه من ضلال ، والى رسول تقوم دعوته على الأصول الانسانية العامة التى تتخطى حواجز الجنس والبيئة والزمن والفوارق العارضة الأخرى ، وعلى الاصلاح الشامل الذى يأسو كل جراح ، ويروى كل ظمأ ، ويحل كل عقدة ، ويعالج كل مشكلة ، وعلى تنظيم دقيق يساعد كل حى على أن يأخذ حقه فى الحياة فى عدالة تامة ومساواة شاملة ، وحرية كاملة ، وفى ظل من الأخوة والرحمة والمحبة والتعاون ، وعلى منهج يصحح العقيدة ، ويقوم الفكر ، ويصلح الفاسد من السلوك ، ويضع قواعد الاجتماع ونظام الحكم على أساس سليم . فكانت رسالة الاسلام ، وكان محمد ﷺ ، كانت رسالة الاسلام العامة الخالدة ، الصالحة لكل زمان ومكان ، وكان محمد خاتم الأنبياء والمرسلين . وسأحاول فى هذا البحث أن أجلى - فى اختصار بالغ - عالمية الدين الاسلامى ، وكيف انتشر نوره ، واستفاد العالم من هدايته ، وما يجب علينا إزاء الدعوة اليه

في كل أقطار العالم ، تحقيقا لقوله تعالى : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا » (١) .

والله أسأل أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن يوفقنا للعمل بما فيه ، إنه سميع مجيب ، ، ،

عطية صقر

معنى عالمية الدين

الدين هو الوضع الإلهي الذي اختاره الله لعباده ليصلحهم في الحياتين ، ويكون عالميا بعدم اختصاصه بجنس من الأجناس البشرية ، وبعدم انحصار تطبيقه في إقليم خاص أو بيئة معينة ، وبامتداد هدايته أزمانا طويلة تتجاوز العصر الذي بدأت فيه ، بمعنى أن يكون الدين صالحا لكل جنس وكل جيل ، أو لكل زمان ومكان ، أو بمعنى آخر أن يكون الدين شريعة الإنسان من حيث هو إنسان ، بقطع النظر عن العوامل والفوارق العارضة ، التي لا تدخل في ماهية الإنسان كإنسان ، وبدون ذلك لا يتحقق معنى العالمية في أى دين .

فهو لا يكون دين جنس تميزه فصيلة الدم ، أو سمة اللون ، أو ظاهرة اللغة ، بل دينا لا يفرق بين العربى والعجمى والحشى والرومى ، ولا بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر ، ولا يمنع من أن يستظل بلوائه متكلم بأية لغة من اللغات ، وهو لا يكون دينا محليا تحده حدود جغرافية واعتبارات إقليمية ، بل يصلح لكل البيئات وكل الأجواء ويتناسب مع كل بقعة زراعية وصناعية وتجارية ، برية وبحرية ، بدوية

وحضرية على اختلاف المستويات المادية والاعتبارات الأخرى .

وهو لا يكون ديناً عالمياً إلا إذا صحب الإنسان في جميع أزماته المتطورة ، وعصوره المتلاحقة ، بمعنى أن يكون خالداً لا يعتره نسخ أو زوال ، ولا عقم أو جمود ، موفياً بجميع مطالبه المتنوعة المتجددة في الميادين السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي كل الميادين التي يزاوئ فيها الإنسان بعقله الواسع نشاطه الكامل من كل نوع .

ولا يوجد دين من الأديان السماوية أو الوضعية فيه هذه المواصفات التي تجعله عالمياً إلا دين الإسلام ، فالدينان السماويان الكبيران وهما اليهودية والنصرانية ، كل منهما خاص بقومه وبعصره .

فاليهودية لا تصلح أن تكون ديناً عالمياً لأنها مرتبطة بشعب معين تعرض للتشريد غير مرة ، تقوم حياته على العصبية الحادة والعنصرية الجامحة ، ذلك أنهم يحاولون أن يستأثروا بعبادة إله وصفوه بأوصاف خاصة ، ويعتقدون أنهم شعب الله المختار وأن غيرهم أميون ، ويستبيحون من غيرهم ما لا يستبيحون من أنفسهم كالربا ، فهل مثل هذا الدين يصلح أن يكون عالمياً ؟ .

على أنه لا يوجد نص في التوراة يتحدث عن هذه العالمية ، فهي دين أسرة بشرية واحدة هي بنو إسرائيل وهم يكرهون أن يدخل بينهم غير عنصرهم . يقول المسيو (جوليان ويل) حاخام باريس في كتابه (اليهودية) : يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول في عهد ابراهيم ثلاث مرات ، لافتا نظره الى الصعوبات التى سيصادفها ، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها ، والأخطار التى سيتعرض لها ، فاذا أصر على طلبه وتحقق الربانى أن الدواعى التى تحدوه للتهود طاهرة ونزيهة فيمكنه أن يقبله في حضيرة البيعة . ثم قال : هذا التحفظ فى أمر طالبي التهود دعت اليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة ، وأوجبه كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات والأخشيان والثبات والشجاعة وأحيانا البطولة أيضا (١) .

وغاية ما يتمسك به اليهود فى ادعاء عموم رسالتهم ما ورد فى كتابهم من أن بنى إسرائيل سيكونون محكمين للأمم ، ومربين للشعوب القوية ، وأنه - قبيل قيام الساعة - سيتفق العالم كله على عبادة الله اتباعا

(١) مجلة الأزهر : المجلد ٨ ص ٢٤١ ، ومجلد ١٠ ص ٤٨٧ .

لديانة بنى إسرائيل ، إذ يكونون قد عقدوا مع الخالق عهدا جديدا ، فيضطر الناس الى القيام عليه .

لكن هذا القول يثبت أن دينهم لا يصلح الآن ، ولا في عهده الأول لقيادة البشر عامة ، بل سيكون ذلك ، على زعمهم ، قبيل قيام الساعة ، على فرض صحة هذه النصوص . وأنى لها أن تكون صحيحة وقد حكم القرآن بأنهم حرفوا الكلم عن مواضعه ، وبدلوا كتاب الله ، وغيروا معلمه ؟ لقد استبدلوا به (تلمودا) مملوءا بالتعاليم الشاذة القائمة على الفساد والإفساد ليبسطوا نفوذهم على العالم كله بأية وسيلة تكون . ولو نظرنا الى المسيحية لرأينا أنها عند تقرير العقيدة لا تعتمد على الدليل المقنع ، بل توجب أن تؤخذ بالتسليم المطلق ، والعقول فى طورها جريا على سنن الله الكونية ، تأبى أن تظل حبيسة التقليد أو التلقين .

كما أنها تنادى بالزهد البالغ والرهبانية الشديدة ، وتحرم الأغنياء أن يدخلوا ملكوت السموات ، ويعقب على هذا أحد كتابهم وهو « الدكتور نظمى لوقا » فى كتابه « محمد ، الرسالة والرسول » فيقول : وهذا السلوك لا يصلح له كل قلب ، ولم تنضج البشرية

نضوجا تاما متساوقا ، ليتمكنها أن تتلقى هذا التعليم ،
فلا يصلح لذلك إلا الأفذاذ من الناس . أما السواد
الأعظم فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجهود
ولا مردود (١) .

وفي المسيحية تسامح متناه وعفو واسع ، ومن المعلوم
أن امتثال هذه الأوامر يتعذر على غير الأذلة
المستضعفين من الناس ، وقد يكون من أكبر المفساد
بإغراء الأقوياء بالضعفاء الخاضعين .

وكانت هذه السياسة صالحة لتقاوم بها عوامل
التنافس والصراع المادى اليهودى ، ولا تصلح لعمران
يراد له أن يطمئن على حقوقه ومقدساته .

على أن سيدنا عيسى عليه السلام بدأ دعوته ببني
إسرائيل خاصة ، كما جاء في إنجيل متى وهو يقص
محاورة المرأة الكنعانية لعيسى ، وهى غير إسرائيلية ،
فأجاب عيسى وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بني
إسرائيل الضالة (٢) . فليس فى المسيحية نص على
عالميتها ، وما نشطت الدعوة اليها إلا بعد اعتناق
الرومان لها ، وقد بقيت نحو ثلاثة قرون محصورة
فى طوائف مبعثرة ، ولم تقم لها دولة الى أن تولى

(١) ص ٥٧ - ٥٩

(٢) اصحاح ١٥ : ٢١ - ٢٩

الامبراطورية الرومانية (قسطنطين الأول) وكانت
أمه قد ربته على المسيحية فحمل قومه عليها ، وأمر
بتحطيم الهياكل والمعابد الوثنية ، واعتبر النصرانية
دينا رسميا للامبراطورية (٢٧٤ - ٣٣٧ م) . ومن
ذلك الحين قام النصرى بإرسال بعثات التبشير الى
البلاد النائية .

وإذا كان هذا شأن الدينين الكبيرين بعد الإسلام ،
فأولى بعدم العالمية الأديان الأخرى .

الاسلام هو الدين العالمى

هذه قضية لا بد لها من أدلة تدعمها وشواهد تثبتتها ،
وسأحاول أن أجعلها فى مجموعات ثلاثة : مجموعة
الأدلة النقلية ، ومجموعة الأدلة الذاتية ، ومجموعة
الأدلة الواقعية .

وأعنى بالمجموعة الأولى ، الأدلة الواردة فى الكتاب
والسنة من قول النبى ﷺ وفعله ، وهى التى يقتنع
بها المؤمنون المصدقون بهما ، وهؤلاء فى غير حاجة
الى إيرادها لأن العقيدة الدينية لا تدع فى قلوب
المؤمنين مجالاً للشك فى هذه القضية ، وإلا كان كفراً .
ولكننا نوردتها لنزيدهم إيماناً ، وليعرفها من يجهلها ،
ولنرد بها على من طعنوا فى الاسلام بأن عالميته من
اختراع أتباعه ، لا من نصوصه .

ومجموعة الأدلة الثانية أقصد بها المقومات الأساسية
والعوامل الرئيسية التى اشتمل عليها الدين ، وهذا
الأسلوب فى الاستدلال يعتمد على فقه الموضوع وتحليل
نصوص الدعوة ، وتلمس النواحي المشرقة الحية فى
مبادئها ، وربطها بواقع الحياة وسنن الكون ، وبيان
مقدار ملاءمتها للسلوك الانسانى فى جميع أطواره ،

وعلى مدى عصوره وأزمانه ، وهذه المجموعة من الأدلة القائمة على هذا المنهج تفيد الباحثين من الأجنب عن الاسلام ، وتفيد في الرد على المتشككين في صلاحيته لقيادة البشرية قيادة رشيدة .

والواقع التاريخي الذي جعلناه دليلا على عالمية الدين يعتبر تطبيقا لمبادئ هذه الدعوة وبيان حسن إنتاجها في الحقل الذي زرعت فيه ، وهي دليل صدق على فاعلية الأدلة الذاتية الموجودة في المجموعة الثانية ، وهذه الأدلة كلها متضامنة في إثبات صدق هذه القضية ، وهي عالمية الدين الاسلامي ، وإليكم الحديث عن هذه الأدلة بنوع من التفصيل .

الأدلة النقلية على عالمية الدين الاسلامي :

١ - من القرآن . جاءت آيات مكية تدل على أن وصف العالمية لازم الدعوة الاسلامية من أيامها الأولى ، وترد على من زعموا أن عالمية الاسلام فكرة لم تكن عند محمد حين أرسل به ، بل جاءت في عهد خلفائه الذين تاقوا الى القتال والتوسع بالفتوح ، كما ردد ذلك « وليم موير » في كتابه عن « الخلافة » (١) وورده

(١) تاريخ الدعوة لارنولد ص ٤٩ ، ٥٠ .

أيضا « ساوندوز » المحاضر الأول للتاريخ في جامعة
كنتر برى بزيلنדה الجديدة ، ونشرته مجلة التاريخ
المعاصر في مارس وابريل سنة ١٩٦١ (١) ومن هذه
الآيات ما يأتي :

١ - قوله تعالى : « وما هو إلا ذكر للعالمين » (٢) .

٢ - قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين » (٣) .

٣ - قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله
إليكم جميعا » (٤) .

٤ - قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر وقرآن مبين *
لينذر من كان حيا ويحق القول على
الكافرين » (٥) .

ومعنى من كان حيا ، كل من ثبت له الحياة ، ولفظ
« من » من صيغ العموم .

٥ - قوله تعالى : « تبارك الذي نزل الفرقان على
عبده ليكون للعالمين نذيرا » (٦) .

(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٣ ص ٢٢٠

(٢) سورة القلم : ٥٢

(٣) سورة التكوير : ٢٧ ، يوسف : ١٠٤ ، الأنعام : ٩٠

(٤) سورة الأعراف : ١٥٨

(٥) سورة يس : ٦٩ ، ٧٠ ، سورة الفرقان : ١٢

(٦) سورة الفرقان : ١

٦ - قوله تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذرکم به ومن بلغ » (١) .

ومعنى « من بلغ » من وصل حد التكليف من أى جنس ولون ، أو من بلغه القرآن من غير المخاطبين به عند نزوله .

٧ - قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٢) .

٨ - قوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » (٣) .

فأم القرى هى مكة ، ومن حولها يشمل كل الناس غير المقيمين فيها ، فكل حى على وجه الأرض مقيم حول مكة ، فهى مركز الدائرة ، وقطرها ممتد بين كل نقطتين على المحيط العالمى .

٩ - قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٤) .

هذه هى معظم الآيات المكية وتضاف إليها الآيات المدنية التالية :

(١) سورة الأنعام : ١٩

(١) سورة الأنعام : ١٩

(٢) سورة سبأ : ٢٨

(٢) سورة سبأ : ٢٨

(٣) سورة الشورى : ٢٢٧

(٣) سورة الشورى : ٢٢٧

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧

(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧

١ - قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين
أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (١) .

فالدعوة فيها موجهة الى اليهود والنصارى وهم أهل
الكتاب والى غيرهم من العرب الذين يطلق عليهم
الأميون .

٢ - قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى
كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به
شيئاً ... » (٢) .

٣ - قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن
يقبل منه » (٣) . فكل انسان لا يدين بدين الاسلام
لا يقبل منه ما دان به ، فهو دين الجميع .

٤ - قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى
ودين الحق ليظهره على الدين كله » (٤) .

(ب) من السنة ، الى جانب السنة الفعلية حين بلغ
الرسول الدعوة جاءت النصوص القولية الآتية : -

١ - (كان كل نبى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت
الى كل أحمر وأسود) (٥) .

(١) سورة آل عمران : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ٦٤ .

(٣) سورة آل عمران : ٨٥ .

(٤) سورة التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٧ .

(٥) رواه البخارى ومسلم .

وجاء بروايات مختلفة ، في بعضها (وبعثت الى الناس عامة) ، (وبعثت الى الخلق كافة) .

٢ - (إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة) (١) ، وكان ذلك في إحدى الخطب الأولى بمكة .

٣ - في كتاب النبي ﷺ الى جيفر وعبدا بنى الجندى ملكى عمان قوله (فإني رسول الله الى الناس كافة ، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين) (٢) .

٤ - في حديث البراء بن عازب عند حفر الخندق في غزوة الأحزاب ، وقد اعترضت المسلمين صخرة وهم يحفرون جاء قوله (فاشتكىنا ذلك للنبي ﷺ ، فجاء وأخذ المعول فقال : بسم الله . ثم ضربه فنشر ثلثها) .

وفي رواية : (فخرج نور أضواء ما بين لابتي المدينة وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأرى قصورها الحمر الساعة من مكاني هذا . قال : ثم ضرب الثانية فقال : بسم الله فقطع ثلثا آخر ، فقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض وفي رواية : لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب من مكاني هذا . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضرب

(١) رواه البخارى وكتب السيرة .

(٢) المواهب للقسطلانى ج ١ ص ٢٢٥

ثالثة وقال : بسم الله ، فقطع الحجر وقال : الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنى لأبصر باب صنعاء) (١) قال ابن اسحق : وحدثنى من لا أتهم عن أبى هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار فى زمان عمر و زمان عثمان من بعده : افتتحوها ما بدالكم ، فوالذى نفس أبى هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها الى يوم القيامة إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك ، هذا وقد كان المرتابون يقولون عن الرسول : يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق ولا تستطيعون أن تبرزوا . وفيهم قال الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » . (٢)

٥ - عن عدى أن النبى ﷺ قال له : (ولئن طالت بك حياة لفتحن كنوز كسرى) قلت : كنوز كسرى ابن هرمز ؟ قال : (كنوز كسرى بن هرمز) . وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز) (٣)

(١) رواه أحمد والنسائى بإسناد حسن .

(٢) الزرقانى على المواهب ج ٢ ص ١٠٩ ، روى بعضه البخار .

عن أبى هريرة .

(٣) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى .

٦ - (إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط فإذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فإن لهم ذمة ورحما) أو قال (ذمة وصهرا) (١) .
فالأحاديث المبشرة بالفتح تدل على عالمية الدين الاسلامى وأنه سينتشر فى هذه الأصقاع وغيرها .
ومن الأدلة على خلود الرسالة ودوامها الى آخر الدنيا ما يأتى :

١ - قوله تعالى : « ما كان محمد أيا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٢) .

٢ - قول النبي ﷺ : (مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويتعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة !) فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين (٣) .

٣ - قوله أيضا : (وأرسلت الى الخلق كافة ، وختم بي النبيون) (٤) .

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة الاحزاب : ٤٠ .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) رواه مسلم .

٤ - قوله لعلی : (أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي) (١) .

وقد بلغ النبي محمد ﷺ الدعوة بصفتها العالمية على ما سيأتى بيانه .

الأدلة الذاتية أو العوامل الأساسية لعالمية الدين الإسلامي : -

إن الأدلة الذاتية على عالمية الدين الاسلامى كثيرة ، وقد تعرض الباحثون للحديث عنها ، وعنى بعضهم بمجموعة خاصة لأهميتها فى نظرهم ، وقد لخص كثيرا منها المرحوم « محمد فريد وجدى » فقال فيما قال : إن المقومات الأساسية الخالدة للاسلام هى : أنه دين الفطرة وأنه قائم على العقل والبرهان ، وأن هناك أصولا أولية يتألف منها دستور علمى يوجه الى ينباع الحكمة وهى تنحصر فى هذه الكليات التى أجمعت عليها كل فلسفات العالم ، وهى : دوام النظر والتفكير فى الوجود إجمالا ، وفى الكائنات التى فيه تفصيلا ودرس أحوال الأمم والاعتبار بها ، وتنور نواميس الاجتماع من خلالها ، والاستهداء بالأعلام الإلهية المنصوبة فى الوجود لهداية السالكين الى الحقائق

(١) رواه مسلم .

الخالصة من الشوائب ، والتجرد من جميع الصبغ
الوضعية ومن الهوى في الحكم على الأشياء ،
والاجتهاد في تحصيل العلم حيث كان ، وعند أية أمة
وجد ، والأخذ بالأحسن من كل شيء ، والعمل بمبدأ
حرية البحث وعدم الاستخذاء للتقليد ، وعدم الجمود
على شيء والجرى على سنة التجديد ، استبقاء للتناسب
بين أهله وبين كل جديد ، واعتبار الفضائل وسائل
لبلوغ الكمال الذى قدره الخالق للانسان فى هذا العالم ،
واعتبار وحدة الإنسانية وأن الناس ما انقسموا الى
أمم وشعوب وقبائل ليتخالفوا ويتناكروا ، ولكن
ليتعارفوا ويتحابوا ، وأن باب الاجتهاد فى الدين وفى
الأحكام مفتوح الى يوم القيامة ، لا تختص به طائفة
ولا تستأثر به أسرة .

هذه هى الأصول الأساسية فى الاسلام ، وكلها كما
ترى أصول حاصلة على إجماع أهل العلم والفلسفة فى
العصر الحديث ، وهى مع هذا أصول خالدة قابلة
للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وفى كل أمة من أمم
الأرض كتب لها السمو وطول البقاء . فهل نعجب بعد
هذا البيان من قولنا : إن تعاليم الاسلام خالدة خلود
النواميس الطبيعية وأنها تصلح لكل زمان ومكان؟ (١)

هذا هو كلام بعض مفكرى الاسلام فى القواعد الاساسية للدين العالمى ، وفلاسفة الغرب ومن يحاولون البحث عن دين جديد للبشرية عامة ، وضعوا قواعد لهذا الدين الذى أسموه « الدين الفطرى أو الطبيعى » . واعتبروها نموذجا عاليا لكل دين من الأديان ، يقول أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف « كارو » فى كتابه « البحوث الأدبية على العصر الحاضر » : أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خلق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ، ووجود روح للانسان متصفة بالإدراك والحرية ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه ، وهذه الروح تستطيع بارادتها أن تظهر هذا الجثمان وتنقيه اذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها الى المادة الصماء ، والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ووضع الحرية الخلقية ، التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات ، تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيو لساعة الموت بالزهادة وأخيرا الاعتراف بناموس الترقى ولكن بدون فضل ترقى الانسان فى مدارج

السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التي هي وحدها تبرر تلك السعادة (١) .

ويقول الفيلسوف « كانت » : الديانة الحقبة الوحيدة هي التي لا تحتوي إلا على قوانين ، أعنى قواعد صالحة للجري عليها ، نشعر من ذاتنا بضرورتها المطلقة ، وتكون مجردة عن الأساطير والتعاليم الكهنوتية (٢) .

لقد اضطر هؤلاء المفكرون الى اقتراح الديانة الطبيعية لأنهم لم يجدوها في الديانات القائمة التي تعتمد في الكثير من مسائلها على الشروح والتأويلات التي تعمل فيها الأهواء عملها ، ولا تتفق ومقررات العلم ، ولا تساير التطور وحاجات البشر في قطاعاتها المختلفة ، ولو أنهم نظروا بحق في الدين الاسلامي المأخوذ من منابعه الصافية لوجدوا فيه أسمى دين يريدونه لإسعاد البشرية في الحياتين .

هؤلاء الناس يريدون أدلة على صدق الدين من الدين نفسه ، وعلى صلاحيته للعالمية من مبادئه الأساسية . وكل ما يريده هؤلاء وأحسن منه وأكثر موجود في الدين الاسلامي ، ولو شئنا لأتينا بكل الأدلة على ما وضعوه من مبادئ ، وكان معنى ذلك هو الحديث عن الدين

(١) مجلة الأزهر : مجلد ٨ ص ١٥١ ومجلد ١١ ص ٢٣٣

(١) مجلة الأزهر : مجلد ١٠ ص ٢٩٤

كله أو معظم ما فيه ، وليس مجاله هنا فحسبنا من ذلك
إشارات خفيفة لبعض ما جاء في الاسلام من هذه
المبادئ لنبرهن به على عالميته الأصيلية الذاتية .
(١) إن عالمية الدين ، كما قدمنا ، تكون إذا كانت
شريعته موضوعة لصالح الانسان من حيث هو انسان ،
ومعنى هذا أن تكون شريعة الفطرة التي فطر الله الناس
عليها ، وقد قال الله تعالى في شأن الاسلام : « فأقم
وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ،
لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون » (١) .

وقال ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ،
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج
البهيمة بهيمة جمعاء - تامة الخلق - هل تحسون فيها
من جدعاء ؟ - مقطوعة الأذن أو الأنف أو ناقصة
الخلق - ثم يقول أبو هريرة راوى الحديث : « فطرة
الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك
الدين القيم » (٢) .

وقال أيضا « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء ،

(١) سورة الروم : ٣٠ - ٣١ ، وصورة أخرى : رواه أبو داود (١)

(٢) رواه البخارى . ٣٦٦ رواه أبو داود (٢) رواه أبو داود (٢)

فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم « أى حولتهم (١) .

الفطرة المذكورة فى الآيه والحديث هى الجبلة والطبيعة والخليقة الانسانية الجامعة بين العالمين المادى والروحى ، والمستعدة لمعرفة عالم الغيب والشهادة ، وما أودع فيها من غريزة التدين المطلق ، الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق قوى الكون والسنن والأسباب التى قام بها نظام كل شىء .

والاسلام قد راعى الفطرة فى بناء التكاليف عليها بحيث لا تكون مصطدمة معها ، أو مهملة لمقتضياتها المادية والروحية ، وفى تقرير الأدلة وسلوك السبل للدعوة وغرس المبادئ ، كل ذلك كان مستوحى من الفطرة ومستخدما إياها فى هذا الغرض النبيل .

ففى مبادئ الاسلام ما يشير اليه قوله تعالى :
« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا » (٢) . وقول النبى ﷺ : « إن لبدنك عليك حقا ولربك عليك حقا » (٣) ، وغير ذلك من النصوص والتشريعات المراعية لطبيعة النفس وحاجات الجسم

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة القصص : ٧٧

(٣) رواه البخارى .

ومتطلبات العقل ، وفي الدعوة كانت أساليب الترغيب والترهيب ، واستعمال وسائل الإيضاح وعوامل التشويق ، وترويض النفس بالصبر على البلاء والشكر على الرخاء ، وبيان أثر القدوة والاستهواء ومراعاة حكم البيئة وعوامل الوراثة وما الى ذلك .

وبهذه الميزة كان الاسلام ملائما لجميع الأجناس البشرية ، فالفطرة الأصلية واحدة ، وتقبلته النفوس على اختلاف مستوياتها ، و متمشيا مع مطالب الحياة بالقدر الذى يصلحها ويجعل النشاط فيها ينتج انتاجا مثمرا مفيدا .

(ب) ومن قيام الاسلام على العقل وتكريمه له نرى أن معجزته الكبرى عقلية وهى القرآن الكريم ، كما يقول النبى ﷺ : « ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، وأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (١) .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو الى استعمال العقل ، فقد تكرر كثيرا قوله تعالى « أفلا تعقلون » .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

وقال : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » (١) . وقال : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (٢) . وحرّم الإسلام التقليد فقال تعالى : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا ، بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » (٣) .

ونهى عن التعصب للرأى ، لأنه اتباع للهوى فقال تعالى : « وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » (٤) .

كما نهى عن اتباع الظن ، لأنه لا تقوم به حجة ، فقال سبحانه : « إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » (٥) .

وطالب بالدليل والبرهان فقال تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٦) .

وامتلات آيات القرآن بالأدلة الكونية والنفسية فقال

(١) سورة الأعراف : ١٨٥

(٢) سورة الحشر : ٢

(٣) سورة البقرة : ١٧٠

(٤) سورة المائدة : ٤٩

(٥) سورة النجم : ٢٨

(٦) سورة البقرة : ١١١

سبحانه « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الأبصار » (١) ، وقال « وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (٢) . وبناء على احترام حكم العقل لا توجد حقيقة دينية مخالفة لحقيقة عقلية ، ولا يوجد نص في القرآن والسنة يتعارض في حقيقته مع حكم العقل ، وإن كان هناك تعارض فهو في ظاهر النص ، ويجب أن يفهم على ضوء العقل ، ويؤول بما يوافقه .

وفي احترام الاسلام للعلم لا نرى ديننا من الأديان يدانيه في هذا المقام ، والنصوص على ذلك أشهر من أن تذكر « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٣) ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٤) ، « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٥) .

(ح) وفي مجال الحريات جعلها الاسلام عنوانا لتكريم الانسان الذي قال الله فيه : « ولقد كرمنا

(١) سورة آل عمران : ١٩٠

(٢) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١

(٣) سورة الزمر : ٩

(٤) سورة فاطر : ٢٨

(٥) سورة المجادلة : ١١

بنى آدم» (١) . إنه قدس الحرية بكافة ألوانها وفي مجالاتها الحيوية المنتجة ، فلا رق ولا تحكّم ولا استبداد ، قال تعالى : «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» (٢) ، وقال : « وأمرهم شورى بينهم » (٣) . وقال عمر رضى الله عنه : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) ؟ وهو بهذا التكريم القائم على احترام الحريات كان أهلا لتحمل المسؤولية ، والمخاطبة بالتكاليف دون سائر المخلوقات ، قال تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان » (٤) . (د) وفي وفاء التشريع بكل القطاعات ، نرى أن الاسلام قائم على تنظيم جميع العلاقات ، بين الانسان وبين الله ، وبينه وبين الناس ، وبينه وبين نفسه ، في المجال الاقتصادي والخلقى والثقافى والسياسى وسائر المجالات ، مصداقا لقوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام

(١) سورة الاسراء : ٧٠

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦

(٣) سورة الشورى : ٣٨

(٤) سورة الأحزاب : ٧٢

دينا « (١) . وقوله : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » (٢) .

ومما يدل على شمول الهداية للنواحي المادية والأدبية ، الدينية والدنيوية ، الروحية والبدنية قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (٣) ، فهو دين المدنية والحضارة الصحيحة بكل مظاهرها وألوانها الهادفة الى صلاح البشرية دينا ودنيا .

(هـ) والاسلام يشتمل على عدة قضايا كلية هي قواعد التشريع الأساسية ، يمكن أن تستنتج منها أحكام لكل القضايا ، وعلاج لكل المشاكل ، وكانت هذه القضايا أساس الاجتهاد في الشريعة ، الذي بمقتضاه وجدت المذاهب الفقهية ، وزخرت بالأحكام والتفريعات ، التي كانت منها فروض مقدرة الحدوث في الأزمان المستقبلية ، وهذا دليل مرونة الاسلام في صلاحيته لكل تطبيق تعرف منه الأحكام .

ولعل مما يشير إلى هذا أن النبي ﷺ بعث بجوامع

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة النحل : ٨٩

(٣) سورة الحديد : ٢٥

الكلم ، ألفاظا محدودة تعمل معانى واسعة ، لأنها
مركزة تركيزا يدل على حكمة واضعها ، وعلى الغرض
الذى من أجله صيغت بهذا الشكل لتكون صالحة لكل
زمان تجد فيه حوادث ومشاكل ، ولكل بيئة لها ظروفها
وعرفها الذى يناسبه نوع خاص من فروع التشريع .
ومن أمثل هذه القواعد الكلية : الضرورات تبيح
المحظورات ، والتكليف بما يستطاع .

(و) والمساواة فى الاسلام أصل مقرر ، ليس أدل
عليها من قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن
أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) . وفى حجة الوداع قال
النبي ﷺ : « الناس لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل
لعربى على عجمى ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى »
(ز) وفى العدل آيات كثيرة فى القرآن ، منها قوله
تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (٢) ، وقوله :
« اعدلوا هو أقرب للتقوى » (٣) ، وقوله : « كونوا
قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

(١) سورة الحجرات : ١٣

(٢) سورة النحل : ٩٠

(٣) سورة المائدة : ٨

والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » (١) .

وقد غضب النبي ﷺ لشفاعة أسامة في حد من الحدود حين سرقت الشريفة المخزومية ، وبين أن سبب هلاك الأمم السابقة هو التفريق في القانون والمعاملة بين الأشراف وغيرهم ، وأقسم أن فاطمة بنته لو سرقت لقطع يدها (٢) .

(ح) والاسلام أنصف كل الأديان السماوية ، وقرر أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بالرسول جميعا ، وأولاهم من الاحترام ما يوليه لمحمد ﷺ ، قال تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » (٣) ، وفي آية أخرى : « لا نفرق بين أحد من رسله » (٤) . وفي الحديث الشريف « الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد » (٥) .

(١) سورة النساء : ١٣٥

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) سورة البقرة : ١٣٦

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥

(٥) رواه مسلم .

(ط) والاسلام دين السلام بحق ، القاعدة عنده هى السلم ، أما الحرب فهى ضرورة شرعت لرد العدوان وتأمين الحريات ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » (١) . وقال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (٢) ، وقال : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٣) .

ومظاهر التعايش السلمى وتبادل المنافع بين الأمم دون نظر الى عقيدة أو مذهب أو غير ذلك أمر معروف فى الاسلام والأدلة عليه كثيرة .

إن هذا الدين الذى فيه كل هذه المقومات العالمية ، التى تنص آياته وأحاديثه على أنه وحده دين البشرية ، وتحت على تبليغه ونشره ، جدير بأن يفيد منه العالم كله ، وأن تبذل جهود ضخمة فى سبيل إذاعته فى كل مكان ، وبقاء الدعوة له فى كل زمان .

(١) سورة البقرة : ٢٠٨

(٢) سورة الأنفال : ٦١

(٣) سورة المتحنة : ٨

الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسلامى :

تكون الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسلامى مثبتة لهذه القضية إذا أخذت من وسائل تبليغها ، والمجالات التى وصلت إليها وكيف أفاد منها العالم على اختلاف بيئاته وأجياله ومستوياته ، ويتضح ذلك بعد الحديث على تبليغ الدعوة فى عهد الرسول وبعده فلنتحدث الآن عن التبليغ .

الرسول يبلغ الدعوة العالمية (أ) أوامر التبليغ

لقد أمر الله نبيه ﷺ بتبليغ هذا الدين ، لأنه لم يكن كما علمت ، دينا خاصا به ، يعمل به هو وحده ليهتدى الى الحق ، ويزيل القلق النفسى الذى كان يعانىه عندما يرى الانسان ، وهو أكرم مخلوق يسجد لصنم لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى شيئا ، وعندما كان يرى العادات المرزولة التى يجب أن يتنزّه عنها الانسان الذى فضله الله على كثير من خلقه .

وقد حدث أن أرشد الله بعض الناس الى طريق الحق ليسيروا فيه وحدهم ، ولم يكلفهم بإبلاغ ذلك غيرهم ، وهم الذين اصطلح بعض العلماء على تسميتهم بالأنبياء دون المرسلين ، وكان منهم قبل الاسلام زيد ابن عمرو بن نفيل ، وخالد بن سنان .

لم يكن الاسلام دينا خاصا بهذا المعنى ، بل كان دين تبليغ وإرشاد للناس كافة .

والآيات التى تأمر بإبلاغ الدعوة أمرا مطلقا كثيرة ، منها المكى ومنها المدنى ، وقد يكون مع الأمر العام بالتبليغ بيان وتوجيه للطريق السوى الذى ينبغى أن

يسلكه الداعى ، والصفات التى ينبغى أن يتحلى بها
الداعون .

ومن الآيات المكية حسب ترتيب نزولها ما يأتى : -

١ - قول الله تعالى : « يا أيها المدثر . قم فأنذر » (١)
وقد جاءت سورة المدثر التى افتتحت بهاتين الآيتين
حاملة الأمر بتبليغ الرسالة وكانت أول سورة فى هذا
المقام ، وإن كانت سورة العلق هى أول ما نزل من
القرآن مطلقا ويفيد النبوة التى ارتبطت بالوحي .
على ما يفهم من حديث الصحيحين عن أبى سلمة عن
عبد الرحمن قال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن
أنزل قبل ؟ قال : « يا أيها المدثر » قلت : أو « اقرأ
باسم ربك » قال : أحدثكم ما حدثنا به رسول الله ﷺ
قال : « إني جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى نزلت
فاستبطنت الوادى ، فنظرت أمامى وخلفى وعن يمينى
وشمالى ، ثم نظرت الى السماء فإذا هو - جبريل -
فأخذتنى رجفة ، فأتيت خديجة فأمرتهم فدثرونى ،
فأنزل الله « يا أيها المدثر . قم فأنذر » .

ويوضح أن هذه المرة كانت بعد المرة الأولى رواية
أخرى عن جابر فى الصحيحين جاء فيها « فإذا الملك

الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، فدثرونى فأنزل الله « يأيها المدثر » . وكان الحديث عن فترة الوحى .

٢ - ومن آيات الأمر بالتبليغ قوله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (١) .

٣ - وقوله : « فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » (٢) .

٤ - وقوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (٣) .

بهذه الآيات وبغيرها مما نزل بمكة أمر الله نبيه بالتبليغ ، فنفذ الأمر معتمدا على الله وعلى قوة الإيمان به ، مع الصبر على المكارة والتعلى بمكارم الأخلاق ، من طهارة الظاهر والباطن والبعد عن الرجس فى جميع صورته وأشكاله ، والإخلاص فى الدعوة دون من بها أو افتخار ، كما تدل على ذلك الآيات الأولى من سورة المدثر وهى « يأيها المدثر . قم فأنذر ،

(١) سورة الحجر : ٩٤

(٢) سورة الشورى : ١٥

(٣) سورة النحل : ١٢٥

وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا
تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

والسيرة النبوية قد وضحت خطوات النبي ﷺ في
تبليغ الدعوة بمكة من الإسراء بها ثم الجهر ، ومن
طرق عرضها على الناس ، وما لاقى هو وأصحابه في
سبيل ذلك . وسنشير الى شيء منه فيما بعد .

وعندما هاجر الى المدينة لاحقته أوامر التبليغ ،
فليس قصارى غرضه من الهجرة أنه تخلص من أذى
قريش ليسكن ويستريح بعيدا عنهم ، ولكن الهجرة
انتقال من ميدان الى ميدان ، وانطلاق من القيود
للتحرر والسياحة في الأرض كما يريد الرسول ودعوته ،
التي حاول المشركون خنقها في مكة والقضاء عليها في
مهدها .

ومن الآيات المدنية التي تأمر بالتبليغ ، ما يأتي :
وهي مرتبة حسب النزول :

١ - قوله تعالى : « وقل للذين أوتوا الكتاب والأمينين
أسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا » (١) . ففي هذه
الآية تبليغ لعنصر جديد في المدينة ، وهم أهل الكتاب ،
عنصر لم يكن في مكة بشكل يستحق الذكر ، فقد كان
فيها الأميون وهم العرب .

٢ - قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

٣ - قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » (٢) .

٤ - قوله تعالى : « لكل أمة جعلنا منسكاهم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم » (٣) .

٥ - قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (٤) .

٦ - قوله تعالى : « وإن أهدى من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (٥) .

هذه بعض الآيات التي تأمر الرسول ﷺ بمتابعة تبليغ الدعوة في المدينة ، كما كان يبلغها في مكة ، فلننظر كيف بلغها .

(١) سورة آل عمران : ٦٤

(٢) سورة آل عمران : ١٠٤

(٣) سورة الحج : ٦٧

(٤) سورة المائدة : ٦٧

(٥) سورة التوبة : ٦

(ب) منهج التبليغ

أولا - في مكة :

بدأ الرسول ﷺ يبلغ رسالة ربه كما أمر ، وكان من الطبيعي أن يعلم بها أولا أسرته التي علمت خبر الناموس من أول مجيئه ، فاستجاب للدعوة خديجة وعلى وزيد بن حارثة . وعلم بهذا الأمر خاصة أصحابه فأسلم أبو بكر الصديق ، الذي استطاع أن يضم الى حظيرة الاسلام من أنس فيهم الخير ، كعثمان ابن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص . . . ثم أسلم غيرهم من السابقين .

ثم خرجت الدعوة عن نطاق الأسرة الخاصة ومدت رواقها الى الأسرة العربية العامة التي تمثلها الشخصيات المذكورة ، ولم يكن النبي ﷺ ليواجه الناس بها علنا قبل أن يجس النبض ويتخذ له أعوانا ، وحتى يقلب الناس النظر في الدعوة الجديدة ويبحثوها على مهل . فاستمر على النهج السرى في الدعوة الذي لا يعدو سماع الناس به وإعجابهم بما جاء به أو دهشتهم اليه .

وقد يكون أمر هذه الدعوة سهلا لو أنها كانت مجرد فكرة لمحمد ولمن يعجب به ، دون أن يكلف بعرضها على غيره ، ويعلن بها جهرا أنها تهدم ما تواضع عليه

الناس من عقائد وسلوك لا يتفق معها ، لكنها دعوة جاءت للتبليغ والنشر . فبعد الفترة السرية التي مهدت لها ، جهر بها علنا في شكل عام ، وكان من الطبيعي أن يعلن بها أسرته الكبيرة من قريش ، لعلها تسلم معه ، أو على الأقل لا تمسه بسوء . فنادى بها على الصفا صادعا بأمر ربه ، وبني نداهه على أسلوب نفسى حكيم ، إذ انتزع منهم أولا الاعتراف بأنه صادق أمين ، وأنه لا يغشهم ولا يخدعهم ، فقال لهم : (أرأيتم لو أخبرتم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟) قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقا . قال : (فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . . .) . وقال لهم في إحدى اللقاءات (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم) (١) . وهذا أسلوب عظيم في أخذ الحجة على الغير ، ولكن عناد القوم صرفهم عن الايمان به ، بل دعاهم الى الاستهزاء به والكيد له ، وصدق الله إذ يقول : « ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (٢) .

لقد أرادوها دعوة أرستقراطية ، تنزل على كبار السادة فيهم ، ولا يزحمهم فيها سواد الناس من العبيد

(١) رواهما البخارى .

(٢) سورة النمل : ١٤

والفقراء ، وأرادوها دعوة عنصرية تراعى فيها الأحساب والأسر وما الى ذلك ، ولكن الاسلام دين عام لكل الأجناس ، وهو في الوقت نفسه تكريم يكرم الله به من يصطفيه من خلقه لمواصفات أدبية عالية لا تكون لسكل الناس .

لقد قال الوليد بن المغيرة : أينزل على محمد وحى وأترك أنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود الثقفى ونحن عظيمى القريتين - مكة والطائف - ؟ فأنزل الله فى ذلك قوله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك ؟ » (١) .

ولما قال الأخنس بن شريق لأبى جهل ، وكانا قد سمعا القرآن مع أبى سفيان من النبى ليلا : ما رأيك فيما سمعنا من محمد ؟ أجابه : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء . فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه . ونزل فى ذلك قوله تعالى :

« وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته » (١) .

وقد طلبت قريش من النبي أن يطرد من حوله العبيد والفقراء فقال الله له : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تقطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً .

وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (٢) .

لقى النبي وصحبه من ضروب الأذى ما لقوا ، فصبروا وصابروا ، وكان رسول الله أسوتهم الحسنة في التحمل ، مؤكدا لهم : أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . عندما قدم له خباب بن الأرت تقريرا شفويا عن سير الدعوة وما يوضع في طريقها من عقبات ، قال له عليه الصلاة والسلام : (إن من كان قبلكم كان يؤتى بالرجل فتحفر له الحفرة ويوضع فيها ، وينشر بالمنشار ويشق نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يخرج ذلك عن دين الله) ثم يقسم بأن الله ناصرهم

(١) سورة الأنعام : ١٢٤

(٢) سورة الكهف : ٢٨ ، ٢٩

فيقول : (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) (١) .

خرج النبي بالدعوة من حدود مكة الجغرافية والقبلية ، وذهب بها الى ثقيف في الطائف ، مؤملاً فيهم الخير ، ولكنهم ردوه أقبح رد ، ومع ذلك لم ييأس من النجاح ، ولم يقطع الرجاء في تكوين أمة مؤمنة ولو بعد حين . بل قال (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً) ثم دعا لهم وقال : (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون) (٢) .

ظل رسول الله يتابع الدعوة على الرغم من كل العقبات ، وهداه تفكيره الواسع الممتد الى أن يوسع دائرة الدعوة لتعم أهل الجزيرة العربية كلها ، ممثلة في الوفود التي ترد كل عام تشهد المواسم من جميع القبائل العربية ، فعرض الدعوة على القبائل في لطف ، عرضاً عالمياً ليست فيه أغراض خاصة ، ولا حدود تقف بها عند نقطة معينة لا تتجاوزها .

كذلك كان لا يسمع برجل قدم مكة وله شرف في قومه إلا جلس اليه يحدثه عن الاسلام ، وبهذه الطريقة

(١) رواه البخارى .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ٢٦٢

سرى خبر الدعوة الى الجزيرة كلها تقريبا ، فوفد عليه بعض الأفراد بمكة وأسلموا ورجعوا الى قومهم منذرين ، ومن حكمته كان يرجو من هؤلاء الوافدين ألا يأتوا بأقوامهم المسلمين الى مكة ، وهو في هذه الحالة من الحصار القرشى ، حتى لا تكون فتنة ، لا يستطيع النبي معها أن يحمى الوافدين فتكون حرب طاحنة تعرقل سير الدعوة وهى ما تزال تحبو ، بل أوصاهم أن يلحقوا به إن استقر به المقام .

ومن هؤلاء الوافدين بمكة : الطفيل بن عمرو الدوسى ، الذى دعا قومه ثم وفد بهم على النبي بعد فتح مكة ، وأبو ذر الغفارى ، الذى أسلم نصف قومه بدعوته ثم أسلم الباقيون بعد الهجرة ، وكذلك وفد على النبي بمكة عشرون رجلا من النصارى ، وقد سمعوا عنه بالحبشة فأسلموا على الرغم من تسفيهه قريش لهم .

تخطت الدعوة وهى فى مكة حدود الجزيرة العربية ، فوصلت الى الحبشة فى السنة الخامسة من النبوة ، وصلت سماعا وعلما عندما هاجر اليها المسلمون الأولون ، ومكثوا فيها عدة سنين ، مكونين أول جالية إسلامية بأفريقيا . ولم يكن الغرض من الهجرة تبليغ

الدعوة بل طلب الأمان والاستقرار بعد أن تزايد اضطهاد قريش لهم . فقابلهم النجاشي واطلع على بعض ما جاءت به دعوة الاسلام ، فأنصفهم وحماهم . وتم لقاء النبي أخيرا بالأوس والخزرج الوافدين من المدينة ففتح الله قلوب أهلها للاسلام ، فعادوا ونشروا الدين في المدينة ومهدوا بكثرة عددهم لهجرة النبي والمسلمين اليها ، فكانت الهجرة .

ثانيا - في المدينة :

بعد الهجرة الى المدينة وجد النبي ﷺ فيها جبهتين معارضتين انضمتا الى الجبهة الثالثة التي تركها في مكة وهي قريش ، الجبهة الأولى أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى ، وكان اليهود في المدينة قوة عظيمة في العدد والعدد والمال ، والجبهة الثانية تمثلت في المنافقين الذين أسس حزبهم اليهود ووجهوهم الى الأغراض التي يريدون تحقيقها . فماذا يفعل الرسول الآن ؟ .

إنه لم ينزل المدينة ليستريح من أذى قريش فإنه يعلم أنها لن تتركه ينعم بالراحة ، ولا تتيح له الفرصة ليقوى فيكون قوة أخرى في الجزيرة تنافسها السيادة . ولم ينزل المدينة ليستريح من أعباء الدعوة ، فإن

الأوامر ما زالت تلاحقه بوجوب متابعة تبليغها
ليبرىء ذمته منها .

(أ) لقد دعا اليهود الى الاسلام فأبوا . إذ كانوا
يعتقدون أنهم خارج نطاقها ، لأنهم أهل كتاب لا حاجة
لهم بكتاب غيره ، ولأن النبي المنتظر كان في اعتقادهم
سيكون من سلالتهم ، فاكتفى منهم أولا بعقد معاهدة
على حسن الجوار وعلى التعاون على حماية الوطن
الذى يضمهم جميعا ، وعلى أن يأمنوا على دينهم
وأموالهم ، وترك لهم الحرية في التدين ، وعاملهم
بالحسنى ، وإن كانوا لم يبادلوه هذه المعاملة السلمية .

واستمر الرسول على استقبال قبلتهم «بيت المقدس»
حتى يشعرهم بأنه ليس بدعا من الرسل ، ولم يجيء
للهدم والتخريب ، بل للإصلاح والتكميل ، ولم يجيء
بالأنانية والاستئثار ، بل بالتعاون والسلام ، وعلى
الرغم من أنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ،
وأنهم كانوا يستفتحون به من قبل على الأوس
والخزرج ، ناصبوه العداة بكل وسيلة ، ووضعوا في
طريقه العقبات وحاولوا غير مرة أن يقتلوه .

وقد صفى النبي ﷺ الحساب معهم فحارب قبيلة
بنى قينقاع إحدى قبائلهم ، لإهانتهم لسيدة مسلمة
في سوقهم خرقوا بها اتفاق الهدنة وأجلاهم الى أذرعات

بالشام وكانوا نحو سبعمائة مقاتل . ثم طلب من بنى النضير ، قبيلتهم الثانية ، التعاون مع يهود بنى عامر حلفائهم في دفع دية سرية القراء ، فهموا بإلقاء حجر عليه من فوق جدار فحاصرهم ثم أجلاهم ، فنزل بعضهم بخيبر وبعضهم ذهب الى أذرعاء .

وقد تفاوض بنى النضير مع قريش على حرب الرسول فكانت غزوة الأحزاب ، وخان بنو قريظة ، قبيلتهم الثالثة ، العهد فصفى النبي معهم الحساب وبعد صلح الحديبية قضى على وكر اليهود في خيبر فأجلى بعضهم وأبقى البعض لزراعة الأرض ، وتمم إخضاعهم في وادى القرى وتيماء ، وفي عهد عمر طهرت الجزيرة العربية من فتنهم ورجسهم فلم يبق فيها إلا دين واحد .

(ب) ودعا النبي ﷺ النصارى الى الاسلام ، ولكن بطريق غير مباشر حيث كانوا ينزلون بعيدا عن المدينة في أطراف الجزيرة فأرسل اليهم البعوث وأرسل اليهم الكتب كما سيجيء الحديث عنه .

وقد أخبر الله تعالى عن شدة عداوة اليهود للاسلام والمسلمين وعن ضعف مقاومة النصارى للدعوة ، كما في قوله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين

آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين
ورهبانا وأنهم لا يستكبرون « (١) » .

وأمره ربه أن يصبر على ما يلاقيه من أذى فى المدينة
حتى تنتهى الظروف للانتصاف من الظالمين ، ووقفهم
عند حدّهم ، فقال تعالى : « ولتسمعن من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن
تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » (٢) .

وكان جداله لهم بالحسنى ، ومعاملته لهم سلاما ،
ولكن تلك الأساليب لم تجد معهم نفعا ، فالحياسة
الاجتماعية الصحيحة تبادل للشعور والمعاملة ينبغى
أن تكون من كل الأطراف لا من طرف دون آخر « فما
استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (٣) .

(ج) وسار النبى ﷺ مع المنافقين سيرة أساسها قبول
الظاهر والله يتولى السرائر ، وكم حدثه أصحابه
بوجوب أخذهم بالشدة للأمارات القوية على أنهم
يبتنون الكفر ويظهرون الاسلام تقية « وإذا لقوا
الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا الى شياطينهم
قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » (٤) .

(١) المائدة ٨٢

(٢) آل عمران ١٨٦

(٣) التوبة ٧

(٤) البقرة ١٤

ولكن الرسول يأبى خشية أن يقال ان محمدا يقتل أصحابه ، والرسول في حاجة الى سمعة طيبة تسير بها الدعوة في الطريق آمنة ، وتكسب أصدقاء بقدر ما يمكنها ، وبخاصة عندما تكون الدعوة في بداية أمرها في مجتمعها الجديد في المدينة .

حتى إذا استتب الأمر للرسول ، وقضى على أكثر أعدائه صفى الحساب مع المنافقين وطهر منهم المجتمع ، والحوادث في ذلك كثيرة .

وعلى طول عهد النبي بالمدينة حدثت عدة التحامات مع قريش توجت بنصر الله وفتح مكة وإسلام المعاندين ، وتحطيم آخر وكر لمقاومة الدعوة في الجزيرة العربية .

كان النبي ﷺ مشغولا في المدينة بالعدو الداخلى من اليهود والمنافقين ، وبالعدو الخارج عنها من قريش ومن سار في ركابها ، ولم يكن لديه الوقت الكافي لنشر الدعوة خارج المدينة بشكل رسمى ، فإن أهلها لم يطمئنوا على أنفسهم بعد ، فانتهاز فرصة الهدنة التي وقعها مع قريش في الحديبية واتخذ خطوة إيجابية لنشر الدعوة خارج المدينة ، سواء أكان ذلك في داخل الجزيرة أم في خارجها . وكان يرسل بين الفينة والفينة بعوثا تبلغ الدعوة أو ترشد المسلمين الى واجبهم .

ولنقسم هذا الركب الزاحف بالدعوة الى قسمين :
قسم داخل الجزيرة وقسم خارجها ، والقسم الداخلى
كان بعضه موجها الى القبائل وبعضه موجها الى
الأفراد ذوى السلطان والنفوذ ، وبعض هذا الركب
الداخلى كان من المنتسبين الى القبائل التى يوجهون
اليها ، لأنهم كانوا قد أسلموا من قبل فأذن لهم النبى
بدعوة أقوامهم بالقدر الذى يستطيعون ، وكان أكثر
ما يستطيعونه هو العقيدة المبسطة والأصول الاسلامية
الأولى .

فى داخل الجزيرة :

(أ) البعوث الى القبائل : بعث النبى ﷺ ستة من
أصحابه ، فيهم عاصم بن ثابت ومرثد بن أبى مرثد
الغنوى وخبيب ، الى الرجيع ، وهو ماء لهذيل بين
مكة والحجاز ، وذلك بناء على طلب رهط قدم الى
النبى ﷺ من عضل والقارة ليفقهوا المسلمين فيهم ،
وقد غدروا بهذه البعثة .

وبعث جماعة من القراء الى بئر معونة ، وكانوا نحو
سبعين على بعض الأقوال ، بناء على طلب ملاعب
الأسنة ، فغرروا بهم أيضا ، وبعث الضحاك بن سفيان
الى بنى كلاب فأسلموا ، ووفد منهم جماعة على النبى
فى السنة التاسعة .

كما أرسل النبي ﷺ الى اليمن معاذ بن جبل ومعه أبو موسى الأشعري ، وأسلم غالب الناس على أثر هذا البعث ، ثم أرسل اليهم عليا وقاتل من لم يسلم فهزمهم ، ثم دعاهم الى الاسلام فأسلموا عن استجابة ورغبة ، فأقام فيهم يقرئهم القرآن ويعلمهم حتى وافى النبي في موسم الحج بمكة .

وأرسل خالد بن الوليد في السنة العاشرة الى بنى عبد المدان في نجران ، وكانوا نصارى ، ليدعوهم الى الاسلام فأسلموا ، وأقام فيهم مدة يعلمهم ، ثم وفد على النبي ومعه بعضهم ، ثم أرسل اليهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ومعه كتاب مفصل .

وبعث النبي خالدا أيضا الى همدان باليمن ليدعوهم وكان معه البراء بن عازب فمكثا ستة أشهر ولم يسلم أحد ، فبعث النبي اليهم عليا ، وبعد أن دعاهم أبوا فكان قتال عنيف انهزموا فيه ثم أسلموا .

ومن بعوث النبي جماعة أسلموا سابقا فأرسلهم الى أقوامهم مبشرين ، منهم ضمام بن ثعلبة في بنى سعد ابن بكر ، وأبو ذر في غفار ، والطفيل الدوسي في قومه ، وعمرو بن مرة في جهينة ، وعروة بن مسعود في ثقيف .

(ب) البعوث الى زعماء . منهم المهاجر بن أمية المخزومي الى الحرث بن عبد كلال أحد أقبال اليمن

فأسلم ، وجريير بن عبد الله البجلي الى ذى الكلاع وذى عمرو الحميرى فأسلما ، والعلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم ، وعمرو ابن العاص الى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، ملكى عمان فأسلما . وسليط بن عمرو العامرى الى هوزة ابن على الحنفى صاحب اليمامة فلم يسلم ، وشجاع ابن وهب الى الحرث بن أبى شمر الغسانى وهو بغوطة دمشق ، فلم يسلم وبعث بالكتاب الى قيصر ، وعياش بن ربيعة المخزومى الى الحرث ومسروح ونعيم ابن عبد كلال من حمير فأسلموا . وعمرو بن أمية الضمرى الى مسيلمة الكذاب فلم يسلم .

فى خارج الجزيرة :

أما البعوث الخارجية فتتمثل فيمن حملوا كتب النبى ﷺ الى كبار الملوك المجاورين للجزيرة العربية ، والذين يمثلون القارات الثلاثة ، آسيا وأوربا وأفريقيا . وكان ذلك فى السنة السادسة للهجرة .

(١) كتب النبى الى هرقل قيصر الروم ، وأرسل الكتاب مع دحية بن خليفة الكلبي ، فسلمه الى عظيم بصرى ، الحرث بن أبى شمر الغسانى ، الذى أعطاه بدوره الى هرقل ، وتحدث هرقل مع أبى سفيان فى شأن النبى ودعوته ، وكان أبو سفيان إذ ذاك فى تجارة

بالشام في وقت الهدنة ، فمال هرقل الى الاسلام ، ولكن عندما شاور قومه حاصوا حيصة حمر الوحش وأنكروا عليه ذلك . وجاء في مسند أحمد أنه كتب من تبوك الى النبي بإسلامه ، فقال النبي ﷺ « كذب ، بل هو على نصرانيته » .

(ب) وكتب النبي الى كسرى أبرويز ملك فارس ، وأرسل الكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي ، وأمره أن يدفعه الى عظيم البحرين ، المنذر بن ساوى ليدفعه بدوره الى كسرى ، فمزق كسرى الكتاب ولم يسلم ، بل أخذته العزة بالإثم ، فأرسل الى باذان عامله على اليمن أن يوجه الى النبي من يقتله ، فمزق الله ملكه وقتله ابنه شيرويه .

ولما جاء رسولا باذان الى النبي أخبرهما بموت كسرى ، وبدعوة باذان الى الاسلام ، فلما عادا وأخبراه بذلك وتحقق صدق خبر الرسول بموت كسرى أسلم وأسلم معه كثيرون من الفرس الذين كانوا باليمن ، وهو يعتبر أول من أسلم من ملوك وأمراء اليمن .

(ج) وكتب النبي الى المقوقس عامل هرقل على مصر ، وبعث بالكتاب مع حاطب بن أبي بلتعة ، فسلمه اليه بالاسكندرية ، وبعد محاورة طويلة مع حاطب قال : سأنظر وبعث الى النبي بهدايا ولم يسلم .

(د) وكتب الى النجاشى أصحمة ، وبعث الكتاب مع عمرو بن أمية الضمرى فأسلم .

وفي هذه الكتب ملاحظات هامة منها : -

١ - أنها كتبت باللغة العربية ، وهى اللغة الرسمية للدولة الاسلامية ، التى ترجمت الى لغة المبعوث اليهم ، إما على يد حامل الرسالة ، وإما بوساطة مترجم محلى ، وهو الظاهر ، وقد ذكر ابن سعد أن النبى ﷺ ألقى كلمة توجيهية فى البعوث ، جاء فيها : انصحوا الله فى عباده ، فإن من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة ، انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم ، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد . فأصبحوا - يعنى الرسل - وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل اليهم ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال « هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم فى أمر عباده » .

وإذا صح هذا الخبر ، وكان ذلك إكراماً لرسول الله فى أشخاص هؤلاء ، فإن معرفتهم باللغات لا تعدو أن تكون سطحية بقدر يسير لا يعتمد عليه فى المهمات الرسمية الدقيقة ، وقد كان للملوك مترجمون لمثل هذه الأمور يوثق فى ترجمتهم ، وقد جاء فى خبر كتاب النبى

الى هرقل عند ما سلمه اليه دحية أن هرقل دعا
الترجمان الذى يقرأ العربية فقرأه .

والكتابة الرسمية باللغة الرسمية للجهة المرسله ،
ضمان أكيد لدقة التبليغ بالمعنى الذى يريد المرسل ،
حتى إذا حدث خطأ فى الترجمة كانت التبعة على
المترجم لا على الكتاب ولا على مرسله . وكثيرا ما
حدثت مشاكل من جهة الخطأ فى الترجمة ، وكان
الرجوع الى النص الأصلى فيصل الموضوع .

٢ - أن كتب النبى الى هؤلاء الملوك كانت على
خلاف كتبه الى أمراء العرب ، فقد ختمت بخاتم
النبى ﷺ ، وكان نقشه « محمد رسول الله » كما رواه
البخارى . ولهذا الخاتم أهميته فى الوثوق من رسمية
الكتاب وصدوره عن مرسله ، وفيه تكريم لهؤلاء الكبار
على ما كان متبعاً عندهم .

٣ - وقد اتبع النبى فى إرسال هذه الكتب طريقاً
ديبلوماسية عظيمة ، إذ بعث بها الى ممثلى هؤلاء
الملوك فى بلاد العرب ليكونوا وسطاء فى توصيلها الى
الملوك ، وهو تقليد يجرى عليه العرف الدبلوماسية
الحديث اتبعه الرسول منذ قرون .

٤ - النقطة الجوهرية التى دعت إليها هذه الكتب
هى التوحيد والإيمان برسالة محمد ، وهذا ترتيب

طبيعى فى الدعوة ، يبدأ فيها بالأصول والمبادئ العليا ، فإذا حصل التصديق بها بينت الفروع بعد ذلك .

٥ - لقد كانت الدعوة الى الملوك دعوة الى العالم كله أو الى غالبه ، بوصفهم ممثلين للشعوب التى يحكمونها ، والأجناس التى تعيش تحت ظلهم ، وقد كانت لفارس مستعمرات تحتها أجناس ، وللروم كذلك مستعمرات كبيرة متعددة ، وكان للحبشة نفوذ فى البلاد التى تجاورها ، انظر الى قوله : « الى هرقل عظيم الروم » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم الأريسيين - الفلاحين - أى فعليك إثم الأتباع والرعية لأنهم اتبعوك ، وكذلك قوله : « الى كسرى عظيم فارس » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم المجوس - عبدة النار أتباعه - وكذلك قوله : « الى النجاشى ملك الحبشة » وقوله : « فإن توليت فعليك إثم النصارى من قومك » وهكذا . . . وذلك يؤكد أنها دعوة عامة .

٦ - يعجبنى فى كتاب النبى ﷺ الى هرقل وتضمينه هذه الآية الكريمة : « يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أن فيها دعوة الى

المساواة « كلمة سواء بيننا وبينكم » لا يقصد منها استعلاء ولا تحكم ولا استغلال ، وفيها رفع لكرامة الانسان ودعوة الى عدم خضوع أحد لأحد خضوع عبادة ، فلا معبود إلا الخالق ، والمخلوقون جميعا ضعاف يتساوون في الدينونة الى الله « ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ، وفيها تقليد ديبلوماسى رائع أساسه الدعوة الى السلام والاحترام المتبادل بين الأمم ، فاذا قام مجتمع جديد أو شكلت حكومة جديدة ثائرة على أوضاع قديمة ، يبلغ الأمر الى الدول الأخرى إخطارا بالأساس الذى قام عليه المجتمع أو شكلت الحكومة ، لعلها تقلد أو تعجب ، أو تمنح الفرصة لتدرس فإن لم تسر على مثل ما سارت عليه ، فحسب المجتمع الجديد أن تعترف الدول الأخرى بوجوده وبكونه حقيقة واقعة تترتب عليها الاجراءات الدولية المتبعة ، « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن لم تدخلوا فيما دخلنا فيه فأقروا بوجودنا الاسلامى وعاملونا على هذا الأساس .

والى جانب إيفاد البعث وإرسال الكتب لنشر الدعوة كانت ترد الوفود على النبى ﷺ طائعة مختارة ، لتسلم رسميا أو لتتعلم ، ثم تتولى هى نشر

الدعوة في أقوامها ، فوفد على النبي ﷺ أكثر من ستين وفدا ، كان أكثرهم في السنة التاسعة التي سميت سنة الوفود وقد تمثلت فيها جميع قبائل العرب في منازلها ومضاربها المختلفة كما حققه العلماء ، وكان في بعض الوفود نصارى لم يسلموا ، كنصارى نجران الذين استقبلهم النبي في مسجده وأذن لهم أن يصلوا فيه صلاتهم ، وعقد معهم معاهدة بقوا فيها على دينهم في مقابل تعهدات تدل على حسن نيتهم نحو الدعوة بتركها حرة تشق طريقها في أمان الى المتعطشين اليها ، لا يعترضونها ولا يعينون على المسلمين ، ولا يسيئون اليهم أية إساءة .

وبهذا يكون الرسول ﷺ قد أبرأ ذمته وبلغ الرسالة تبليغا رسميا عاما ، ولم يشأ أن يترك الدنيا قبل أن يؤكد التبليغ في شكل جماعى ومؤتمر عام ، يشهد فيه الناس أنه بلغ ، ويشهد ربه على ذلك .

لقد اجتمعت في حجة الوداع آلاف مؤلفة ، أعلن فيها خلاصة ما دعا اليه من مبادئ طوائف الثلاثة والعشرين عاما ، وقال في النهاية : « فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت » وفي رواية « وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ » قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة ، يرفعها الى السماء ،

وينكثها الى الأرض ويقول : « اللهم اشهد » ثلاث مرات ، وأمرهم بالتبليغ عنه فقال « فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » .

ولم يشأ أيضا أن يترك هذا الموقف التاريخي العظيم في الأماكن المقدسة قبل أن يبين لهم الأصل الثابت الذي تؤخذ منه القواعد ، وتدور على أساسه الدعوة ، والسبب الأقوى الذي يجمعهم على الحق ويكتب لمجتمعهم القوة والأمان والرخاء فقال : « وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنة نبيه » .

وفي هذا الموقف الجامع أعلن على الملأ أن الله قد أتم نعمته على المسلمين بهذا الدين الكامل الوافي بأغراض الحياة السعيدة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » (١) .

المسلمون يبلغون الدعوة العالمية

(١) أوامر التبليغ

ومع كون الرسول ﷺ مأمورا بالتبليغ ، وقد بلغ فقد أمر أمته بمتابعة تبليغ الرسالة وحمل الأمانة من بعده ، وكان لابد من هذا التبليغ العام لأن الرسول ليس مخلدا والسنوات التي عاشها لا تكفى لأداء هذه المهمة تفصيلا ، فحسبه أنه رسم الطريق وأقام المنارات ووجه وأرشد وبين ووضح . لقد غرس النبتة وترك لأصحابه متابعة رعايتها بإمدادها بأسباب القوة ، وصد الأذى عنها وتكثيرها عن طريق الأخذ منها بأية طريقة ممكنة ، لتصبح أرض البشرية كلها خضراء تنعم بالظل الوارف والثمر الشهي وتستمد كل أسباب الحياة .

وأوامر التبليغ كثيرة منها :

١ - قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١) .

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

وقد قال العلماء فى تفسيرها : إن معنى « من »
التبعض فالذين يتولون مهمة الدعوة بعض الأمة
والوجوب عليها كفاى ، وهذا البعض هو من يصلح
للدعوة من حيث العلم بها وحسن عرضها ، أما غيرهم
فلا حرج عليهم . وقال بعض المفسرين : إن « من »
هنا للتجريد ، على معنى فلتكونوا أمة تدعو الى
الخير ، وهو وإن كان خطابا للمجموع يصح أن يراد
به الجميع ، على معنى أن كل انسان يستطيع أن
يدعو بالقدر الذى يعرفه وبالوسيلة التى تمكنه كان
عليه أن يدعو ، ليكون طابع الأمة هو الدعوة الى
الخير ، وذلك جوهر الرأى العام الناضج القائم على
الفقه والوعى الكامل والغيرة على إشاعة الخير
والتمكين للحق .

فالعامة من الناس يدعون الى القضايا والأحكام
الواضحة السهلة ، والخاصة منهم مكانهم عند الجدل
والمناقشة ذات المستوى العالى ، وكل هؤلاء لابد أن
يحسنوا عرض الفكرة ، حتى لا يحصل رد فعل يسىء
اليها ، وهو ما بينه الله لنبيه بالحكمة والموعظة
الحسنة .

والذين يقومون بالدعوة خارج المجتمع الاسلامى
جماعة مخصوصون ، لا يجوز أن يخرجوا جميعا ،

وإلا خلت الديار منهم وتعطلت المصالح الداخلية ،
فالدعوة في الخارج كالجهاد ، بل هي جهاد يقوم به
بعض المسلمين ويبقى الآخرون للأعمال الأخرى ،
قال تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا
نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ،
ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون » (١)
قال فيها بعض المفسرين إن النافرين هنا هم
المجاهدون والمتفقهين هم الباقون مع الرسول ليتلقوا
عنه العلم ويبلغوه إلى المجاهدين عند عودتهم .

٢ - ومن أوامر التبليغ قول النبي ﷺ (ألا فليبلغ
الشاهد منكم الغائب ، فلعل بعض من يبلغه أن يكون
أوعى له من بعض من سمعه) (٢) .

٣ - وقوله : (نضر الله امرأ سمع مني شيئاً فبلغه
كما سمع ، فرب مبلغ أوعى من سامع) (٣) وجاء في
بعض رواياته « فرب حامل فقه لا فقه له ، ورب حامل
فقه إلى من هو أفقه منه » .

٤ - وقوله : « اللهم ارحم خلفائي » قلنا يا رسول

(١) سورة التوبة : ١٢٢

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

الله : ومن خلفاؤك ؟ ، قال (الذين يأتون من بعدى
يروون أحاديثي ويبلغونها الناس) (١) .

٥ - وقوله : (بلغوا عنى ولو آية ، ومن كذب على
متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) (٢) .

هذا الى جانب الآيات الكثيرة التى تدل على فضل
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وترغب فى دلالة
الغير على الهدى وأن للدال مثل أجر الفاعل ، وأن
رجلا واحدا يهديه الله على يد إنسان خير له من حمر
النعم .

وأن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة
من يجدد لها دينها ، كما رواه الحاكم وصححه ، وما
ورد من قول الرسول ﷺ فيما روى عنه (يحمل هذا
العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين
وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين) حديث حسن
ذكره القسطلانى .

وقد قال العلماء : إن تبليغ الدعوة واجب ،
وأجمعوا على ذلك . غير أنهم قالوا : إنه واجب
وجوبا كفائيا ، بمعنى أنه اذا قام به البعض سقط
الطلب عن الباقيين ، وهو واجب وجوبا عينيا لمن

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه البخارى .

وجد وحده وليس معه غيره يقوم بهذا الواجب ، ومثل هذا مثل مسلم وجد في بلد ليس فيه مسلمون ، أو مع جماعة ليس فيهم مسلم كان عليه أن يدعو بالقدر الذى يعرفه ويستطيعه ، ولا يفلت أبدا من هذا التكليف .

(ب) منهج التبليغ :

وقد استجاب الصحابة واستجابت الأمة الاسلامية الى أوامر القرآن وتوجيهات الرسول فنشروا الدعوة بكل ما أوتوا من قوة ، بدافع من دينهم فى غير مطمع دنيوى ، وفى الاطار الذى رسمه النبى . وكان من آثار هذا النشاط قيام هذه الدولة العظيمة ، التى وقفت تتحدى الزمن وتحتل مكان الصدارة فى العالم كله قرونا طويلة .

انطلق أصحاب رسول الله يحملون لواء الدعوة ، مجاهدين بالقرآن « وجاهدكم به جهادا كبيرا » (١) داعين الى الاسلام ومكارم الأخلاق وقواعد العدل والنظام . متسلحين بما يدفع عنهم غائلة المعتدى ، ويرفع العقبات من الطريق ، ومستهدفين بذلك أن يفتح الله على أيديهم قلوبا غلغا وأعيننا عميا وآذاننا صما ، متمثلين فى ذلك قول النبى ﷺ : (لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) (٢) ، بل

(١) سورة الفرقان : ٥٢

(٢) رواه مسلم .

إن حمر النعم التي كان يسيل عليها لعاب العربي من قبل ، لم تعد تشغل فكره بعد إخلاصه للواجب لذاته ، فلم يغره الريف النضر أن يرتع فيه ، ويحط رحاله بين سهوله ووديانه الممرعة في الشام والعراق ومصر .

وبهذه الروح القوية ، وبالأمل الباسم في إحدى الحسينيين ، الشهادة أو النصر ، وبالنفسية الطاهرة العفيفة ، والارتفاع فوق مستوى الماديات المغرية زحفت الدعوة حتى اتسعت رقعة الاسلام ، وتكونت دولة لا تغيب عنها الشمس ، حتى أذنت للخليفة العباسي أن يتحدى الغمامة أينما سارت وأمطرت فسيأتيه خراجها .

لقد تلقف الناس دين الاسلام لما أنسوا فيه من المبادئ الانسانية العالية ، ولما رأوا فيه من الغذاء الروحي ، الذي اطمأنت به عقولهم وسكنت نفوسهم . رأينا الفرس مثلا وقد كان بينهم وبين العرب ما هو معروف من العصبية المتطرفة ، يشغلون بعد موقعة القادسية بالدخول في الاسلام ونشره بين ربوع البلاد ، والاقبال على تعلم لغته والتبحر في علومه ، حتى كانت بعد سنوات معدودة تضم أقطاب الاسلام في الميادين المختلفة .

وكذلك كان للاسلام فضل كبير في البلاد التي وصل اليها بعد حدود فارس شمالا وشرقا ، إذ أخرج الناس من وثنية منحطة الى دين هو أرقى ما يمكن أن يتصوره العقل ، نالوا بسببه مزايا اجتماعية وأدبية ما كانوا يحلمون بها من قبل .

وفي شمالي أفريقيا الذي كان يربح تحت نير الاستعمار ، نشطت بفضل الاسلام بلاده وعادت أفضل مما كانت عليه .

بل إن الاسلام كان له فضله البالغ على أوروبا أيضا ، فقد كانت الى القرن السابع الميلادي تعيش في ظلام حالك ، من الجهل والفوضى الاجتماعية والسياسية وتحكم رجال الدين في حياة الناس ، فجاء الاسلام وأسس بعض رجاله دولة في أسبانيا التي كانت على مثال غيرها من الاستبداد ، فمضى المسلمون على سجيتهم في تأسيس المدارس والمستشفيات ونشر العلم والمدنية واستقبال الوافدين من كل صوب ، لينهلوا من معين الحضارة الاسلامية العذب ، غير ناظرين الى أجناسهم أو أديانهم أو لغاتهم ، وكما فعل المسلمون في أسبانيا فعلوا في صقلية ، وصارت مركزا يحج اليه الراغبون في العلم والمعرفة الصحيحة من كل البقاع . فكان ذلك منبها لأوروبا وحافزا لها على

التفكير في مصيرها ، وكان من وراء ذلك نهضتهم
الحديثة المعروفة .

الدعوة في الشرق :

تعال معي أيها القاريء نتابع ركب الاسلام الزاحف
لنرى كيف تقبلته الأمم ورضيته ديننا لها ، وسيكون
مروونا مع الركب سريعا فالمجال لا يتحمل الاستراحة
في كل محطات العالم لندرس على مهل آثار الاسلام
في هذه البلاد . وحسبنا من ذلك لقطات سريعة في
مروونا العابر ونماذج تدل على غيرها من آثار .

اتجه ركب الاسلام نحو الشرق مارا بشمالى بلاد
العرب فأسلم المسيحيون من غسان ، وبعد موقعة
القادسية وفد المسيحيون الضاربون على ضفاف
الفرات الى « رستم » مسلمين ، وساعد النصارى
المقيمون فى الأراضى البيزنطية جيوش العرب فى فتح
فارس . وكتبوا الى أبى عبيدة قائد الجيش الاسلامى:
يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم وإن
كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن
ظلمنا وأحسن ولاية علينا .

وكان للتسامح الدينى معهم ومع غيرهم أثره فى
كثرة دخولهم فى الاسلام ، مع ما وجدوه من سهولة
العقيدة وبساطة الدين ويسر التكاليف ، الى جانب

استيائهم من السفسة المذهبية التي جلبتها الروح الإغريقية الى اللاهوت المسيحى ، يقول : « كيتانى » : فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف ، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية ، وتزعزعت قواعدها الأساسية ، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب ، لم تعد المسيحية بعد تلك الحالة قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة ، وقدم مزايا مادية جلييلة ، الى جانب مبادئه الواضحة البسيطة ، التي لا تقبل الجدل . وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى فى أحضان نبي بلاد العرب (١) .

ولم يكن هناك أى قهر فى اهتدائهم الى الاسلام أو أى اضطهاد لهم . ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية ، بتلك السهولة التي أقصى بها « فرديناند وإيزابيلا » دين الاسلام من أسبانيا ، أو التي جعل بها « لويس الرابع عشر » المذهب البروستانتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا ، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن انجلترا مدة ثلثمائة وخمسين سنة ، كما يقول أرنولد .

فتحت فارس ودخل أهلها الاسلام طوعا مرجحين بالدين الجديد الذى خلصهم من الوثنية والأوضاع الفاسدة ، وقامت فيها الخلافة العباسية التى تمثلت فى عهدها الأول حضارة الاسلام الزاهرة ، ثم واصل الاسلام زحفه شرقا الى أواسط آسيا ، حتى استقر أمره فيما وراء النهر فى زمن المعتصم العباسى ، وكان لمحمود الغزنوى أثره فى نشره هناك .

وانتشر الاسلام فى أفغانستان وأعلن ملك كابول اسلامه فى زمن الخليفة المأمون ، وتوطدت أركان الاسلام فى كافة أرجائها بانتهاء فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوى .

ودخل المغول الاسلام بفضل الدعاة المسلمين ، مع ما عرف عنهم من جبروت فى أعمالهم الحربية ، وكان أحدهم ، وهو بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمرائهم ، على يد تاجرين من بخارى ، وأسلم على يديه كثير من جنود هولاکو ، الذين فروا اليه . وأسلم أحمد أخو هولاکو (١٢٧٤ - ١٢٨٢ م) . وعمل على نشر الاسلام بين التتار .

وانتشر الاسلام بين القبيلة الذهبية النازلة فى وادى الفولجا ، وهى إحدى قبائل المغول .

ودخل البلغار الاسلام على يد التجار المسلمين ،
وحاول البلغار هداية ملك روسيا « فلاديمير » عندما
أراد أن يبحث عن دين غير الوثنية ، ولكنه خشى
المسلم كان يعد نفسه داعية مخلصا لله .

وأسلم القيرغيز في وسط آسيا على أيدي علماء التتر
في القرن الثامن عشر ، وأصبحت مدينة قازان مركزا
دينيا للدعوة الاسلامية أسلم بفضل نشاطها كثيرون .
وذلك - كما يقول أرنولد - راجع الى مستوى الأخلاق
في المجتمع الاسلامي ، الذي كان أكثر رقيا ، والى أن
المسلم كان يعد نفسه داعية مخلصا لله .

وزحف الاسلام حتى وصل سيبيريا ، وبذل سلطانها
« كوتشم خان » جهدا كبيرا في نشرها . ويذكرون أن
القيرغيز يغنون أغاني شعبية لها مكانتها بين وسائل
الدعوة في الوقت الحاضر ، وقد تضمنت حقائق الاسلام
الأساسية مصوغة في قالب قصصي ، جعل العامة تقبلها
بيسر وسهولة .

ودخل الاسلام الهند في وقت مبكر عن طريق التجار
العرب وبالفتح الاسلامي ، وكان لمحمود بن سبكتكين
جهد واضح في ذلك وكان للاسلام أثره في تخفيف حدة

الطبقات المتوارثة في ديانة الهنود ، وفي تكريم المرأة التي كانت تحرق حية لتلحق بزوجها الميت ، وأصبحت في الهند جامعات دينية ذات طابع قديم .

كذلك وصل الاسلام سيلان ، وفيها الآن مدارس اسلامية ، وانتشر أيضا في جزر (مالديف) التي يغلب الاسلام على سكانها .

ووصل الاسلام أندونيسيا والفلبين على يد الدعوة من العرب والهند ، واستجاب الناس له بسرعة ، لأنهم وجدوا فيه سكن نفوسهم وغذاء أرواحهم ، وكان فضل انتشاره في هذه الجهات للحضارة برحلاتهم التجارية البحرية ، وأفادت البلاد من الاسلام تهذيبا لعاداتهم وشعورا بالحد من التنافس المسعور بين جزرها ، والتخلص من بقايا البوذية والكونفوشية ، ونشطت الدعوة اليه في عهد امبراطورية «ماجافاهيت» (١٢٩٣ - ١٤٧٨ م) .

وصل الاسلام الى الصين في القرن الأول الهجري ، وكان ذلك عن طريقين :

طريق البر من مقاطعة (سينكيانج) ، وطريق البحر حيث كانت توجد جاليات عربية على الساحل تزاوّل أعمال التجارة هناك .

وكان انتشاره في مبدأ الأمر بين الأفراد وبجهودهم ، ولم يدخل بيت الملك إلا في حكم المغول بفضل الداعية البخارى شمس الدين عمر ، الملقب بالسيد الأجل ، والذي كان له نفوذ إسلامى عظيم .

كما وصل الاسلام الى كوريا واليابان ، ثم تخطى هذه القارة ووصل الى استراليا في القرن التاسع عشر على يد المهاجرين من الهند والأفغان ، ويتزعمهم مسلم انجليزى يدعى (بريستلى) الذى أسلم سنة ١٩٤٧ لتأثره بالاسلام الذى يحترم جميع الأنبياء ، ويدعو الى السلام كما تابع الاسلام زحفه الى جزر المحيط الهادى ، ويوجد الآن في جزر (فيجى) نحو ثلاثين ألف مسلم .

الدعوة في الغرب :

بعد انتقال النبي ﷺ الى الرفيق الأعلى فتح عمرو ابن العاص مصر ، ورحب أهلها بالفاتحين ، وتابع الفتح سيره الى شمالى أفريقيا وأزال حكم الرومان من قرطاجنة سنة ٦٩٨ م ، وكان من أهاليها الجيش الذى فتح الأندلس سنة ٧١١ م بقيادة طارق بن زياد ، ومن هذه الجهة استطاع الاسلام أن ينفذ الى الجنوب متوغلا في الصحراء حتى وصل الى خط الاستواء في سنين متتالية .

وكان لنشاط الطرق الصوفية أثره في هذا الميدان ، وبخاصة القادرية والشاذلية والتيجانية والسنوسية ، وظهرت أسماء كثيرة لامعة في سماء الدعوة للدين ، منها عبد الله بن يس ، الذى اتخذ له رباطا في إحدى جزر السنغال وجعله مركز دعوته ، وبث دعائه فأسلمت آلاف من قبيلة (لمتونة) ، وما زال يدعو حتى توفى فى سنة ١٠٥٩ م ، وحمل أتباعه المرابطون أمانة الدعوة من بعده ، وقويت شوكتهم حتى فرضوا سلطانهم على أسبانيا .

وكذلك ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وله جهود طيبة فى نشر الدعوة التى نشطت فى القرن السادس عشر كرد فعل لطرد المسلمين من أسبانيا .

وتحمست قبيلة (لمتونة) و (جداله) من صنهاجة لنشر الدين فى السودان ، وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش سنة ١٠٦٢ م وثانى أمراء المرابطين حافلا بدخول الناس فى الاسلام .

وفى سنة ١٠٧٦ م أسلمت مملكة (غانا) عن بكرة أبيها ، وتأسست فى القرن الحادى عشر مدينة (تمبكتو) وصارت مركزا علميا هاما الى جانب مركزها التجارى .

وكما دخل الاسلام هذه الجهات من الشمال دخلها من الشرق ومن الشمال الشرقى ، فدخل من مصر الى (كانم) عند بحيرة تشاد التي صارت بعد دولة عظيمة ، اشتهر من دعائها (عمر كبا) الذى هدى قبائل (بمبارا) الى الاسلام فى أوائل القرن العشرين .

وفى القرن الرابع عشر هاجر بعض قبائل العرب من تونس الى الجنوب حتى وصلوا دارفور ، وتزوج أحدهم المسمى (أحمد) بنت ملكها ، وتولى الملك بعده ، فكانت الدولة الاسلامية التي دامت الى وقتنا الحاضر .

ومن أشهر الدعاة فى هذه المناطق (عثمان دنفديو) المصلح الدينى فى القرن الثامن عشر ، وتابع أولاده الدعوة من بعده ، وكان لنشاط أحمد إدريس أثره فى نشر الدعوة بفضل أحد أتباعه وهو محمد عثمان الميرغنى .

ومن أشهر رجال الطريقة الفادرية فى الغرب الحاج (عمر تال) المشهور بعلمه وورعه ، وقد توفى سنة ١٨٦٥ م ، وكذلك (أحمد سامورى) الذى جاهد حتى أسره الفرنسيون ، وتوفى سنة ١٩٠٠ م ، وقامت السنوسية بجهد كبير فى نشر الدعوة بطريقة سلمية

آمنة ، وأسس محمد بن على السنوسى فرقة دينية للإصلاح ، وجعل مركز دعوته (جغبوب) وتوفى سنة ١٨٥٩ م ، بعد أن أسس دولة اسلامية .

وعلى العموم كان الدعاة فى هذه المناطق ، كما يقول أرنولد ، دعاة ذوى غيرة وحماسة بالغة ، ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس فى غانا ، وفى مسافة تبلغ ألفى ميل ، يندر أن تجد مدينة زاهرة ذات أهمية إلا وفيها على الأقل مسجد .

وفى شرقى أفريقيا كانت الدعوة قد وصلت الحبشة أيام الرسول وكثر فيها المسلمون بعد القرن الرابع الهجرى ، وزاد عددهم فى القرن الحادى عشر حتى بلغ ثلث السكان تقريبا ، ثم كانت حركة « أحمد القرين » فى القرن السادس عشر التى أسلم بسببها الكثيرون وقتله الأحباش بمعونة البرتغاليين سنة ١٥٤٣ م .

وعلى الساحل الشرقى هاجرت جماعة من الشيعة على رأسهم زيد بن على حفيد الحسين المتوفى ٧٤٠ م ، وجاءت جماعة من منطقة قرب الأحساء بالخليج العربى ، وبنو أول مدينة على الساحل هى «مقديشيو» حوالى منتصف القرن العاشر ، وصار لها سلطان على كل عرب الساحل حوالى سبعين سنة ، حتى قدمت

جماعة أخرى من الخليج العربى وخطوا رحالهم فى
(زنجبار) وتتابعت الهجرات حتى جاءت فى القرن
الخامس عشر جماعة من حضرموت يدعون الى
الاسلام ، فجعلوا (بربرة) مركز دعوتهم ، وكانوا
نحو أربعة وأربعين ، سافر بعضهم الى (هرر) وهدى
كثيرين الى الاسلام .

توغل المهاجرون داخل أفريقيا ، وكونوا مستعمرات
اسلامية فيها ، ورحبت أوغندة بتجار العرب ترحيبا
بالغا ، وأنشئت مراكز اسلامية فى الكونغو ، بفضل
التاجر العربى (تيبوتيب) الذى وصل نهر الكونغو
فى منتصف القرن التاسع عشر .

وعلى يد هؤلاء التجار دخل الاسلام (نياسالاند)
وشق طريقه الى جنوبى القارة حتى مستعمرة الكاب ،
بفضل المهاجرين من الملايو الذين جلبهم الهولنديون
فى نحو القرن السابع عشر أو الثامن عشر كما جاء
اليها بعض الهنود ، وكسب الاسلام هناك أكثر مما
كسبت بعثات التبشير المسيحية ، على الرغم من
التفاوت الكبير بين القوتين وكذلك وصل الاسلام الى
مدغشقر وجزر المحيط الهندى .

وكانت أهم العوامل لسرعة تقبل الأفريقيين للاسلام
ونجاح الدعوة فيهم ما يأتى : -

١ - أن كل مسلم يعد نفسه داعيا الى الله ، يرى أن ذلك واجب عليه لا يحتاج الى ترتيبات وإجراءات خاصة ، كالتى يتخذها المبشرون ، وقد قال الكاردينال (لافيجرى) إن الدراويش البسطاء والتجار الذين يجوبون تلك الأقطار ينشرون الاسلام أينما حلوا ، فيقبل عليهم الناس أيما إقبال ، ويعاهدونهم على الاسلام دون أية مقاومة .

٢ - بساطة العقيدة الدينية وسهولة فهمها ويسر تكاليفها الشرعية وملاءمتها بشكل قوى لحال الزوج وظروفهم .

٣ - اعتقاد الأفريقيين أن المسيحية هي دين البيض المستعمرين ، تحمل معها الظلم والاستعباد والتفرقة ، والنظرة الساخرة لغيرهم ، بخلاف الاسلام دين الرحمة والعدل والمساواة يقول (موريل) فى كتابه عن نيجيريا .

إن الاسلام لا يتطلب من وجهة نظر أهل نيجيريا أن يفقد أحد قوميته ، ولا أن يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة ، وليست هناك هوة بين الداعى الى الاسلام والمهتدى اليه ، فلهما متساويان أمام الله ، لا نظريا فقط بل عمليا أيضا ، وينفذ مبدءا التآخى الانسانى تنفيذا عمليا رائعا ، وإن انتشار الاسلام

الذى نشهده اليوم فى نيجيريا الجنوبية ليوثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا عظيما ، ويمنح الاسلام من يدخل فيه منزلة أرقى وفكرة أسمى من مكانة الانسان من العالم المحيط به ، ويحرره من ربقة الأحكام والخرافات .

٤ - الداعية المسلم عندما يحل ببلد يعد نفسه مواطنا كبقية المواطنين ، يندمج معهم بالمعاملة والمصاهرة والاشتراك فى الخدمات العامة للبلد ، ويكون سلوكه نفسه من أهم العوامل فى جذب الأهالى نحو الدين .

٥ - الاسلام يعلم أتباعه حب الحرية والاعتزاز بالوطن وكرهه المستعمرين ، وهذه النعمة محببة الى كل انسان ، وتتحرك لها عواطفه ، ويميل الى من ينادى بها والى الدين الذى يقررها ويدعو اليها .

٦ - كما أن الاسلام يحمل عوامل الرقى والحضارة ، ويرتفع بمستوى الأفريقى الى مكان عال فى الفكر والخلق والعادات . يقول (أرنولد) (١) :

إن مجرد الدخول فى الاسلام يدل ضمنا على الترقى فى الحضارة وأنه خطوة جد متميزة فى تقدم القبيلة

الزنجية عقليا وماديا ، وقد اتضح ما تقدمه حضارة أفريقيا الاسلامية الى الزنجى الذى دخل فى الاسلام وضوحا يبعث على الإعجاب فى العبارات الآتية :

إن أقبح الرذائل وهى أكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قربانا ، ووآد الأطفال أحياء ، تلك الرذائل قد اختفت فجأة والى الأبد والذين كانوا يعيشون عراة بدعوا يرتدون الملابس ، بل يتأنقون فى ملابسهم ، والذين كانوا لا يغتسلون بدعوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال لأن الشريعة المقدسة تأمرهم بالطهارة .

٧ - وكان لنشاط الجمعيات الدينية الحديثة أثره البارز فى نشر الاسلام فى هذه القارة ، ومن أخطرها الجمعية الخيرية الاسلامية بشرقى أفريقيا ، التى يشرف عليها الإسماعيليون ، فقد أنشأت مساجد ومدارس وكليات وقامت بأعمال كثيرة حببت اليها الألوفا من الأهالى ، الذين حملوا لواء الدعوة وتوغلوا به فى داخل القارة مسافات بعيدة .

كما كان لإبطال تجارة الرقيق وإنشاء السكك الحديدية وتأمين الطرق أهمية فى يسر الانتقال بالدعوة مع القوافل والتجارة .

الدعوة في أوروبا وأمريكا :

تعال معي أيها القارئ لنصاحب ركب الدعوة في العالم الغربي ، فقد فتحت أسبانيا في القرن الأول الهجري وعاش فيها الاسلام نحو ثمانية قرون ، حتى أصدر فرديناندو إيزابيلا سنة ١٥٠٢ مرسوما بإلغاء شعائر الدين الاسلامي في جميع أرجاء البلاد ، حتى خرج العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠ م .

وقد كتبت أسبانيا في هذه المدة صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ومنها تلقى العلم طلابه من جميع أصقاعها بعد أن كانت البلاد ترزح تحت نير الاضطهاد ، وتعيش في جو خانق من الفساد الخلقى وتحكم السادة في العبيد ، حتى أن مؤرخي المسيحية قالوا : لقد ظهر أن الحكم الاسلامي كأنه عقاب نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوي ، واتجهوا نحو الرذيلة .

تحول كثير من الأهالي الى الاسلام ، ونعموا بمبادئه الخالدة ، وكان هناك انسجام ومصاهرة وإقبال على تعلم اللغة العربية ، ونبغ كثير منهم في آدابها ، حتى المسيحيون واليهود منهم ، وتسمى كثير من هؤلاء بأسماء عربية ، وقلدوهم في بعض النظم الدينية كالختان ، كما أثرت العقيدة على أفكار

الرهبان ، فغير كثير منهم رأيه في عيسى الذى كانوا يسمونه ابن الله ، ومنهم (اليباندوس) أسقف طليطلة» و « فيلكس » أسقف أورجيل ، وكان من أثر ذلك عقد مجمع طليطلة سنة ٩٣٦ م للنظر في هذه الأفكار .
يقول أرنولد :

وقد بلغ من تأثير الاسلام فى معظم الذين تحولوا اليه من مسيحيى أسبانيا مبلغا عظيما ، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة ، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذى استولى على عقولهم ، وبهر خيالهم ، كما وجدوا فى الفروسية العربية مجالا فسيحا لإظهار بأسهم ، وما تكشفته عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق كريم ، تلك الحياة التى ظلت مغلقة فى وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها ، أضف الى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة اذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التى لا يبعد أن تكون دراستها فى حد ذاتها باعثا على الدخول فى دينهم (١) .
وكما دخل الاسلام ومدنيته الى أوروبا من الأندلس دخلا من صقلية ، وتوغلا فى إيطاليا ، وحاصر العرب

روما مقر الحبر الأعظم ، حتى إن البابا يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢ م) ظل يؤدي الجزية مدة سنتين ، ومكث حكم الاسلام قائما نحو مائة وثلاثين سنة ، حتى أخذ النورمانديون هذه الجهات نهائيا سنة ١٠٩١ م . وعن هذين المنفذين أخذت أوروبا الحضارة .
ومما يدل على ذلك ما يأتي :

١ - أن « فردريك الثانى » ملك سبيليا وألمانيا فى القرن الثالث عشر ، وهو أول من أقام حكومة نظامية فى أوروبا سنة ١١٩٢ ، أنشأ جامعة فى نابولى سنة ١٢٢٤م على نظام جامعة قرطبة ، وتعلم العربية ودرس علومها وآدابها ، وحذق الرياضة والطب والفلسفة والطبيعة على أيدي أساتذة العرب تلاميذ ابن رشد ، واصطحب معه الى إيطاليا زمرة من العرب والمسلمين ساعدوه فى تنظيم حكومته .

٢ - أن البابا الأكبر « سلفستر الثانى » سنة ٩٩٩ م وكان عالما دينيا كبيرا ، رحل الى الأندلس فى أيام الخلافة الأموية وحصل من شيوخها على الإجازة فى التدريس والرياضة والفلك ، وعاد الى بلاده حيث ألف كتابا فى الحساب ، فكان أول من نقل هذا العلم الى أوروبا .

٣ - أن أول مستشرق انجليزي ، وهو « أديلارب » طوف سنة ١١٢٠ م في الأندلس وصقلية وسوريا ، وترجم عن العربية مبادئ اقليدس وكتاب الخوازمي في الحساب ، وكان له نصيب كبير في إنشاء جامعة باريس وغيرها .

٤ - أن « روجر الأول » ملك صقلية سنة ١١٢ م تلقى التاريخ الطبيعي على يد العرب ، و « الفونس العاشر » ملك قشتالة درس العربية ، وأمر بنقل علوم العرب ، ونافسه في ذلك ملوك أوروبا .

٥ - أن الراهب الإنجليزي « روجر بيكون » المتوفى في القرن الثالث عشر ، درس علوم العرب ، وتشبع بطريقتهم العلمية في البحث ، فنبد منطق أرسطو ، وقرر أن الطريقة المثلى للوصول الى الحقائق العلمية هي طريقة العرب ، (شاهد واختبر) .

٦ - أن الملك « فيليب البافاري » بعث الى الخليفة هشام الأول يستأذنه في إيفاد بعثة الى الأندلس لدراسة نظم التعليم وأساليب الإدارة والحكم ومظاهر المدنية ، فأذن له ، بل أرسل خبراء من العرب لاستشارتهم فيما يريد ، وكذلك صنع غيره من الملوك ، وكانت انجلترا أشد دول الشمال حرصا على ذلك ، فكانت تبعث أولياء

عهدوها الى الأندلس لتلقى هذه المعارف الجديدة بل أرسل الملك « جورج الثانى » ابنة أخيه ملك «دومانت» على رأس بعثة مكونة من بنات الأمراء والموردات حوالى عشرين فتاة لدراسة آداب السلوك والفنون الراقية التى تتعلق بالمرأة .

وكان الأسطول الهولندى الذى قهر الأسطول الانجليزى فى لشبونة سنة ١١٥٢م من صنع أيد عربية، أما قائده فهو أميرال البحر (طارق) ومعظم السدود وجسور الأنهار فى انجلترا وأوربا أنشأها أيدى مهندسين عرب ، وخاصة جسر هشام الذى سُمى باسم الخليفة هشام الثانى بناه مهندس عربى فوق نهر التيمس .

ودخل الاسلام أوروبا أيضا فى القرن الرابع عشر على يد الأتراك ، الذين استولوا على أجزاء كبيرة من جزيرة البلقان ، حتى فتحت القسطنطينية سنة ١٤٥٣م . وكان عهد سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٧م) عهد توسع ، ولم تتوقف فتوحات العثمانيين إلا أمام أبواب فيينا سنة ١٦٨٣م .

وعندما فتحت القسطنطينية حرم محمد الفاتح اضطهاد المسيحيين تحريما قاطعا ، ومنح البطريق وأتباعه امتيازات كبيرة ، وكانت هذه المعاملة من

أهم الأسباب التي جعلت الأغرريق يؤثرون حكم المسلمين على المسيحيين الذين ظلموهم واستبدوا بهم كثيرا ، وقد اشتهر مراد الثانى بعنايته فى تحقيق العدالة ، وبإصلاحه للمفاسد التى سادت فى عهد الأباطرة الأغرريق .

واهتم الأتراك بنشر الاسلام بالوسائل السلمية وكانوا يحتفلون بمن يدخل فى الدين فىكون ذلك حافظا لغيره أن يسلم مثله يقول الكسندروس عن المسلمين الأتراك .

لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم ومائى فضائلهم الخلقية لخلنا من جحودنا ، سواء فى عبادتنا أو فى تراجمنا ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا - فلا ريب أن هؤلاء سيقيمون الحجة علينا ، ولا ريب أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فىهم هى الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية .

ولو نظرنا الى معظم دول أوروبا الحالية لوجدنا فيها جاليات اسلامية نرح معظمها من آسيا وأفريقيا ، وبجهودها دخل أوروبيون كثيرون فى الاسلام ، واستطاعوا أن يتفاعلوا مع هذا الدين بحضارتهم وتقاليدهم بعد أن رأوا فيه المرونة وقيامه على الفطرة والعقل .

بل إن بعض المفكرين الأوروبيين الذين لم يسلموا قال عندما عرف حقيقة الاسلام وأخلاقه العالية ونظامه الاجتماعى السياسى المتين : إذا كان هذا هو الاسلام، فنحن إذا مسلمون .

ولو أذن للاسلام أن يمد رواقه على هذه البلاد عند فتح الأندلس لكانت الحضارة قد تقدمت للانسانية بخيرها قبل ذلك بكثير ، غير أن الأقدار جعلت المسلمين يقفون عن زحفهم بعد أن انتصر « شارل مارتل » على عبد الرحمن الغافقى فى معركة « بواتيه » يوم السبت ٨ من شعبان سنة ١١٤ هـ (اكتوبر سنة ٧٣٢م) تلك المعركة التى يقول فيها « كلود فارير » الأديب الفرنسى : فى ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدينة ثمانية قرون الى الوراء .

ويقول « شامبيون » مدير مجلة « بارلمنتير » : لولا انتصار جيش مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى ، ولما أصيبت بفظائعها ، ولما كابدت المذابح الأهلية التى نشأت عن التعصب الدينى المذهبى ، ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش ، ولولا ذلك لما تأخر سير المدينة ثمانية قرون ، إننا مدينون للشعوب العربية بكل

محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة ، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة على تلك الشعوب العريقة في الفضائل ، وحسبها أنها مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثال الهمجية ، وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف ، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى .

وأخيرا أقول لك أيها القارئ : إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد ، بل تخطى العالم القديم الى العالم الجديد ، ويحكى التاريخ أن جماعة من المسلمين رغبوا في نشر الاسلام وراء البحار ، أطلق عليهم اسم المغرورين لجرأتهم وإقدامهم على هذا الأمر الخطر ، وكأنه كان يرئ في أذنهم قول عقبة فاتح شمالي أفريقية حين نزل البحر بفرسه وأقسم أنه لو يعلم أن هناك أرضا وراء هذا البحر لخاضه حتى يصل اليها لينشر دين الله . كان هؤلاء ثمانية أقلعوا من لشبونة في القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى ، وساروا نحو الغرب حوالى أحد عشر يوما ثم عادوا يحملون أخبار عالم جديد لم يعرفوه من قبل ، وهو ، وإن لم يكن على التحقيق أمريكا ، فهو جزر كانت مجهولة .

وفي القرنين الأخيرين وصلت جاليات الى أمريكا الشمالية والجنوبية وأقاموا هناك ، وأسسوا جمعيات ومساجد في أشهر المدن ولهم سمعة طيبة في كل حقل يعملون فيه من حقول التجارة والصناعة وغيرها ، واستطاعوا بنشاطهم أن يحولوا عددا من أهالي تلك البلاد الى الاسلام ، أو على الأقل يفتحوا عيونهم عليه ويبدون السحب الكثيفة التي كانت تحول دون معرفتهم لحقيقته .

وبعد فقد تبين من هذا السرد الموجز لحركة الاسلام في مده وانتشاره بمبادئه السامية أن الاسلام له أعوان وأنصار في كل جهات العالم ، وأن البيئات التي وجدوا فيها لم تكن حائلة دون تطبيق تعاليمه ، وأن أجناسهم وألوانهم ولغاتهم لم تقف حائلا دون اعتناق هذا الدين والتفاعل مع مبادئه ، وأن له في بعضها تاريخا قديما لازمها قرونا عدة ، لم تزده الأيام إلا قوة في نفوسهم واعتزازا به ، وهذا من أكبر الأدلة الواقعية على عالمية الدين الاسلامي وحيويته واتفاقه مع جميع الحاجات البشرية في كل الجماعات الانسانية .

يقول (إيتين دينيه) ، وسليمان ابراهيم الجزائري في كتابهما عن السيرة النبوية : فدين محمد قد أكد إذا من الساعة الأولى لظهوره وفي حياة النبي أنه دين

عام ، فاذا كان صالحا لكل جنس كان صالحا بالضرورة لكل عقل ولكل درجة من درجات الحضارة وهو على ما فيه من البساطة المتناهية بالنظر لمذهب المعتزلة ، والتشدد بالنظر لمذهب الصوفية : يؤدي للعالم الأوربي ، من غير أن يعوق حرية فكره المطلقة ، كما يؤدي للزنجى السودانى ، الذى ينتشله من عبادة الأوثان الباطلة ، هداية وتأيدا ، وهو يرفع نفس التاجر الانجليزى ، الذى يرى حياته فى العمل ، ويعتبر الوقت من ذهب ، بمقدار ما يرفع نفس الحكيم المتصوف والشرقى المتأمل فى بدائع الصنع ، كما يرفع نفس الغربى المأخوذ بسحر الفن والجمال بل هو يفتن الطبيب العصرى أيضا بما فيه من الطهارات المتكررة وتناسق الركوع والسجود ، اللذين هما ليسا فى إفادتهما الجسم نماء بأقل من إفادتهما النفس صحة وسلامة (١) .

لقد حار المفسرون فى تعليل ظاهرة المد الدائم للإسلام ، وراح كل يفسر تفسيراً محدوداً من وجهة نظره ، فمنهم من يرجع ذلك الى العوامل الذاتية للإسلام فى عقيدته وشريعته ، ومنهم من يرجعها الى الظروف السياسية والاجتماعية للبلاد التى زحف

الاسلام اليها ، دون سلطة قاهرة أو نفوذ قوى ،
ومنهم من يربط ذلك بظواهر أخص لا تصلح أن تكون
سببا عاما في هذه القوة الغالبة للدعوة ، وفي موقفها
الثابت أمام الزلازل التي لم تنل من سريانها النفاذ
السريع .

ولكن السبب الحقيقي الجامع هو أن الاسلام بطبيعته
دين عالمي في عقيدته ومبادئه ، يجمع كل الأجناس
تحت لوائه ، وتعاليمه التي تشعر الانسان بوجوده
الكريم ، وتوفى بجميع مطالبه وحاجاته الروحية
والمادية ، ولا عجب في ذلك فهو دين الله الذي أحكم
صنعه لهداية خلقه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا
من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، صبغة الله ومن أحسن
من الله صبغة .

هل انتشر الاسلام بالسيف ؟

في غمرة الحيرة في تعليل انتشار الاسلام بسرعة لم
تطوع نفس الحاقدين على الاسلام أن يقولوا الحق
فعزوا السبب الى الغزو الحربى واستعمال القهر
والاكراه على اعتناق الدين ، وما زال المحدثون من
الحانقين يرددون هذه الفرية لينالوا من عظمة الاسلام
في جوهره النقى الصافي الذي أخذ ألباب الناس

بمبادئه ، فأعجبوا به أيما إعجاب واختاروه ديناً لهم ،
تسكن اليه نفوسهم وتطمئن به قلوبهم ، وتحرر به
عقولهم ويستقيم سلوكهم .

إن العقائد لا تغرس بالإكراه أبداً ، لأن العقيدة
انفعال النفس بقضية من القضايا ، والنفس تأبى أن
تهضم شيئاً تمجه طبيعتها ، قال تعالى حاكياً ما كان
من نوح مع قومه: «أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» (١)
والإكراه على اعتناق الأفكار قضاء على الحرية التي
مجدها الإسلام بما لا يوجد له مثيل في أي دين ولا في
أي تشريع سماوى أو أرضى وهو طعن أيضاً في كرامة
الإنسان وأهليته للخلافة في الأرض .

وقد جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة تقرر الحرية
وتشيد بها وتعترف بكرامة الإنسان وقدره ، وتصرح
بأنه لا يجوز قهر إنسان على اعتناق مبادئ الإسلام
فمن ذلك :

١ - قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد
من الغي » (٢) وقد نقل ابن جرير الطبري عن ابن
عباس في سبب نزولها أن رجلاً من الأنصار وهو
أبو الحصين من بنى سالم بن عوف ، كان له ولدان

(١) سورة هود : ٢٨

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦

تنصرا قبل مبعث النبي ﷺ ، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الزيت ، فلزمهما أبوهما وقال : والله لا أدعكما حتى تسلما ، فأبيا ، فاختصموا الى رسول الله ﷺ فقال الأنصاري : يا رسول الله أيدخل بعضى فى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت هذه الآية .

٢ - قوله تعالى : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » (١) .

٣ - قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » (٢) .

٤ - قوله تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (٣) .

فمهمة النبى هى التبليغ فقط ، وهداية الناس الى الاسلام بمعنى اعتناقهم له لا يمكن أن يقوم به الرسول فذلك من رحمة الله وحده : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » (٤) .

(١) سورة الكهف : ٢٩

(٢) سورة يونس : ٩٩ ، ١٠٠

(٣) سورة الغاشية ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة القصص : ٥٦

٥ - قوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم » (١) .

فاعتناق الاسلام يكون بمجرد الحرية ومحض الاختيار دون قهر وإجبار .

٦ - لما أعطى النبي الراية لعلی يوم خيبر قال : يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « لا ، انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه . فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم » (٢) .

فعلى ضوء هذه النصوص وغيرها كانت دعوة النبي ﷺ الى الاسلام ، وعلى هديه سار أصحابه من بعده ، وقد اختلط المسلمون بأهل الكتاب من اليهود والنصارى وكان بينهم نقاش كبير أمر فيه المسلمون بالتزام الجادة واتباع الطريق الأحسن ، وهو إظهار محاسن الاسلام وأثره في أخلاق المسلمين ومعاملاتهم ، فذلك خير دعاية له . وقد دخل أهل مكة في الاسلام دون أن يعلو رعوسهم سيف ، أو يهددوا بما يلجئهم الى اعتناق الدين .

(١) سورة التكويد : ٢٧ ، ٢٨

(٢) رواه مسلم .

ذكر الشيخ محمد عبده : أن غير المسلمين كانوا اذا فتحوا بلدا عينوا دعاة لنشر دينهم بكل ما أوتوا من قوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين . بل كانوا يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم في المعاملة ، فيغيريهم ذلك على الاسلام ، وأن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا ، عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا ، وبلغ أمر المسلمين فيما بعد أنهم لم يقبلوا إسلام راغب في الدين إلا بين يدي قاض شرعى يقر أمامه أنه أسلم بلا إكراه . ووصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزيز مثل أولئك العمال ، وقد أثر عنه أنه قال له : ما بعث محمد جابيا ولكن بعث هاديا (١) .

على أن الاسلام اذا كان يفرض فرضا على الناس فكيف اعتنقه المغول والتتار وهم في أتم قوة وأعظم بطش ، وقد جاءوا للقضاء على الاسلام فانقلبوا مسلمين .

ولو كان انتشار الاسلام بالقهر فكيف يفسر انتشاره بسرعة في أيام الضعف السياسى والعسكرى للدولة الاسلامية ؟ لقد كان أثر الرحالة والتجار والطرق الصوفية بالغاً مبلغاً عظيماً في نشر الاسلام في أفريقيا وآسيا بالطريق السلمى ، دون إغراء أو تهديد .

ولو نظرنا الى خريطة العالم الاسلامى اليوم لرأينا أن البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى التى يقيم فيها أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد إندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الإفريقية وسهول الصحراء الواسعة ، فإن عدد المسلمين فيها يقرب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم ، فى الوقت الذى فيه البلاد التى كانت مسرح الفتح الاسلامى ، وهى العراق والشام لا يزيد عدد المسلمين فيها على عشرة ملايين ، يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين وغيرهم (١) .

وقد قرر العلماء أن الحروب التى أرغم النبى وأصحابه على خوض غمارها كانت لغرضين ليس منهما الإكراه على الدين :

(١) حقائق الاسلام للعقاد ص ٢٢٢

أولهما : الدفاع عن العقيدة وعن حرمان المسلمين .
وثانيهما : مقاومة القوة التي تقف في طريق الدعوة
التي أمروا بتبليغها ، وفعل النبي ﷺ والخلفاء
الراشدين المهديين من بعده هو الحجة في هذا الموضوع ،
وما يحدث من غيرهم لا يحتج به على الإسلام ، وإنما
هو تصرف شخصي قد يخطىء وقد يصيب .

قال تعالى في بيان غاية القتال : « قاتلوا الذين لا
يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم
الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا
الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) .
فالغاية من القتال إعطاء الجزية للإسهام بها في تكاليف
الدفاع عن حرياتهم وإظهار حسن نيتهم نحو الإسلام ،
وهي مبلغ رمزي ضئيل لا يدفعه إلا القادرون ممن
يصلحون للقتال . وليست غاية القتال هي الإسلام ،
فقد نصت الآية على ذلك « حتى يعطوا الجزية » وليس
فيها « حتى يسلموا » .

وقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين لله » (٢) ، فالغاية هي القضاء على الفتنة ، أي

(١) سورة التوبة : ٢٩

(٢) سورة البقرة : ١٩٣

دعم أركان السلام في المجتمع ، وذلك كما يكون بالاسلام يكون بالجزية أو بالعهد ، ولو كان القتال لفرض الاسلام على الناس ما أمر الرسول بترك الرهبان والنساء والصبيان . وأما قوله تعالى : « ويكون الدين لله » فمعناه أن يظهر أمره ويعلو صوته ، ولا يتوقف ذلك على أن تكون له الأكثرية العددية في الناس ، فظهوره بظهور الحق الذي هو فيه من استقامة مبادئه ، وصدق الهدى الذي جاء به .

على أن من جاءنا من المحاربين طالبا الأمان ليسمع كلام الله لا يجوز أن نقتله أو نكرهه على الاسلام ، بل نبليغه الدعوة ونحافظ على حياته وأمواله وكل حقوقه حتى يرجع الى بلده ويبلغ مأمنه ولو لم يسلم (١) .

إن نظرة الاسلام الى الحرب نظرة طبيعية واقعية ، فهي مكروهة للنفوس التي تحب السلامة ، كما قال سبحانه « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » (٢) وينهى المسلمين عن مجرد التمني لخوض معركة مع العدو ، ففي الحديث « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا » (٣) .

(١) الجواب الصحيح لابن تيمية ص ٦٩ ، ٧٤

(٢) سورة البقرة : ٢١٦

(٣) رواه البخاري ومسلم .

والحرب ضرورة تقدر بقدرها « وقاتلوا في سبيل
الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » (١) « فإن قاتلوكم
فاقتلوهم » (٢) . فالمسلمون كانوا يلجئون الى الحرب
إلجاء وكان بودهم ألا تكون حرب أبدا ، ولكنها سنة
الله في خلقه ، كما يقول سبحانه « ولولا دفع الله الناس
بعضهم ببعض لفسدت الأرض » (٣) ، خاضوا غمارها
للغرضين المذكورين آنفا .

ففي الغرض الأول قاتلوا من تعدى عليهم بالقتال
فعلا ، وكذلك من استعدوا للشروع فيه ، وذلك مبادرة
الى لقاءهم قبل المباغته .

وهذا تطبيق للمبدأ العام في الانتصاف « فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (٤)
« وجزاء سيئة سيئة مثلها » (٥) .

ومن الغزوات لهذا الغرض : أحد والأحزاب ومؤتة ،
وغطفان ودومة الجندل ، وغزوة بني المصطلق ،
وخيبر ، وتبوك وغيرها ، وبيان الأسباب الحقيقية
ليس هذا محله فيطلب من كتب السيرة .

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٩١ .

(٣) سورة البقرة : ٢٥١ .

(٤) سورة البقرة : ١٩٤ .

(٥) سورة الشورى : ٤٠ .

وفي هذا الغرض من الحرب قاتل المسلمون من تعدوا على حرية إخوانهم ليخلصوهم من الظلم ، كما قال تعالى « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » (١) . وكذلك قاتلوا من نكثوا العهد وغدروا ، كفتح مكة ، وغزوة بنى قينقاع وبنى النضير .

وفي الغرض الثانى وهو تأمين طريق الدعوة كانت فتوح الشام وفارس وغيرهما ، الى جانب وجود حالة الحرب المستمرة من أول الأمر وكان الفرس يريدون قتل النبى ﷺ كما سبقت الإشارة اليه عند إرسال الكتاب اليه .

ولما كانت الدعوة الاسلامية لتأمين حريات الناس وتوفير الأمن لهم ، وتخليصهم من الشرك والظلم والفوضى ، كان لابد أن تحاط الدعوة بقوة تحميها ، وتزيل العقبات من طريقها ، قال تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » (٢) فالحرب الاسلامية حرب حق من أجل الحق ، ولو عمقنا النظر

(١) سورة النساء : ٧٥

(٢) سورة الحج : ٤٠

في هذا المبرر لرأيناه أيضا يندرج تحت الغرض الأول، وهو رد العدوان والدفاع عن العقيدة والوطن والحرمات .

ولم يحدث أبدا أن سارت الدعوة ومعها السلاح لأول مرة لتزيل به العقبات ، بل مهد لها النبي أولا بارسال الكتب الى الرؤساء من الملوك والأمراء ، ولم يمكنه هؤلاء من توصيل الدعوة لمن يتشوقون اليها فكان لابد من إبعاد هذه العقبات من الطريق ليصل النور الى الضالين ، بل بلغ النبي الدعوة بالقرآن ، كما قال تعالى « وجاهدوهم به جهادا كبيرا » (١) على الطريق الذي رسمه الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكان تبليغها مقتضيا لتنقل وأسفار واتصالات بالناس ، فلا بد من حماية الدعوة اليها من بطش المكذبين ، وهو حق طبيعي تقره جميع العقول والأديان .

على أن مما يدل على أن حرب الاسلام لم تكن تعطشا للدماء ولا حبا للانتقام ، التوصية بعدم التعرض لغير الحاملين للسلاح من الرهبان والنساء والصبيان ، والتوصية بالرحمة البالغة في الحرب ، فهي كالعلمية الجراحية ، ضرورة تقدر بقدرها ، والتوصية بقبول

الصلح إن عرضه الأعداء ، وكذلك الوصية بعدم تخريب العمران لغير ضرورة الحرب ، والإحسان إلى الأسرى ، وغير ذلك من آداب الحرب العظيمة التي فصلها العلماء .

فالإسلام أباح الحرب ولكن حاطها بملطفات بما لم تبلغ إليه مدنية القرن العشرين ، ولم يكن من أغراضها أبدا حمل الناس على الاسلام ، فقد تبين أن العقائد لا تغرس بالإكراه ، ولقد أثر عن عمر رضى الله عنه أن عجوزا جاءت في حاجة لها وكانت غير مسلمة ، فدعاها إلى الاسلام فأبت وتركها عمر ، وخشى أن يكون في قوله وهو أمير المؤمنين ، إكراها لها ، فاتجه إلى ربه ضارعا معتذرا : اللهم أرشدت ولم أكرهه ، وتلا قوله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

ولم تكن الحرب ضد الكفار لمجرد كفرهم أبدا ، بل لرد عدوانهم كما سبق ، فإن المبدأ العام مع المخالفين في العقيدة هو : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » (١) وقد عاش مع النبي كفار كثيرون وتعامل معهم بالحسنى ما داموا يبادلونه هذه المعاملة ، قال تعالى :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم

يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن
الله يحب المقسطين» (١) .

وليس الاسلام وحده هو الذى جاء بالجهاد والحرب
للدفاع وتأمين الحريات ، فقد كانت الحرب فى القديم
وما تزال وسيلة من الوسائل لحل المشاكل الاجتماعية
الى عهدنا هذا ، مع بلوغ الانسانية أشدها ونييل
العقول رشدها ، فالحياة لا تبقى والحقوق لا تصان
إلا بقوة تحميها .

ولعل هذا القدر كاف فى نقض هذه الشبهة أو رد هذا
الطعن الذى يوجهه الأعداء للإسلام من كونه انتشر
بالسيف لا بصدق مبادئه كما يقول المسلمون .

جبهات المقاومة لعالمية الاسلام

لقد تعرضت الدعوة الاسلامية لعدة مصادمات من اول يوم نادى فيه الرسول قومه الى التوحيد ، واتخذت هذه المصادمات عدة ميادين ، فهي لم تقف عند حد التكذيب للدعوة ، بل تعدت الى ميدان العمل الايجابي لوقف تيار الاسلام الجارف ومدته الواسع ، وحيكت له عدة مؤامرات من داخل المجتمع الذى يعيش فيه النبى وصحبه ، على يد المنافقين واليهود وغيرهم من الرعايا الموجودين بين المسلمين ، ومن خارجه فى الدول المحيطة النافسة على القوة الجديدة التى غطت على كل قوة فى هذه المنطقة .

وكان للأعداء على مختلف ألوانهم وميادينهم أساليب متنوعة فى هذا السبيل ، وقد سمعنا فى التاريخ عن الغزوات التى وجهت الى الاسلام ، إما بالسلاح المادى فى الميدان المكشوف ، وإما بالسلاح المعنوى من وراء الجدر ، فمرة بالتشكيك فى أصل الدين ، وبالدعوة الى الإلحاد ، ومرة بالغزو الثقافى لتحل الآراء الهدامة محل الآراء الدينية ، وأخرى بالغزو الخلقى والاجتماعى لينسلخ المسلمون من مقومات شخصيتهم

الأصلية ، وكذلك بالنظم السياسية وقواعد الحكم بمسمياتها المختلفة ، وعناوينها الخلابة . وعلى الرغم من كل هذه المصادمات فإن الدعوة العالمية ما تزال ثابتة صامدة ، بل مندفعة بقوة تحطت كل الحواجز والعقبات ، لأنها - كما قدمنا - تحمل عوامل قوتها في نفسها ، غير أن هذا الثبات وهذه المواجهة يختلفان كيفما حسب ما يكون عند المسلمين من إيمان وتعلق بالدين وغيره على الدعوة إليه .

دعنا من المقومات العنيفة التي واجهتها الدعوة أيام الرسول ﷺ من قريش ومن اليهود وغيرهم ، فكتب السيرة وفت هذا الموضوع حقه ، والمقام هنا مقام إيجاز يكفى فيه أن نعطي لمحة خاطفة للعبارة والعظة .

حدثت بعد وفاة النبي ﷺ ، مصادمات حربية معروفة ، وبخاصة مع الفرس والرومان ، ثم كانت الفتوح الممتدة شرقا وغربا والى كل البلاد ، كما عرفت من السرد الموجز لسير الدعوة . ومع المصادمات الحربية كانت مؤامرة اغتيال عمر بن الخطاب ، والفتنة التي استشهد فيها عثمان ، والمصادمات الداخلية بين جبهتى على ومعاوية ، واستغلال ذلك

كله للقضاء على الدين ، حيث ظهرت الفرق ولعب لعبته عبد الله بن سبأ اليهودى ليطيح بالعقيدة الاسلامية الموحدة لكلمة المسلمين « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » (١) .

وكانت الشعوبية أصبعا من أصابع الهدم لبناء الاسلام ، والعودة به الى عهد الجاهلية حيث التعصب للأنساب والأحساب ، واتخذت هذه الحركة مركزها في فارس على الباب الشرقى لدار العرب ، فظل بعض الفرس متمسكين بماضيهم البائد ، ممتلئة قلوبهم حسرة على ضياع مجدهم السياسى ، على الرغم من قيام دولة إسلامية كبيرة في بلادهم وعلى أكتافهم وبجهودهم .

لقد تجنب الشعوبيون العدااء السافر مع العرب أولا ، وانتهزوا الفرصة المواتية للأساليب الخفية الأخرى ، فقد عمد بعضهم الى وضع كتب في مثالب العرب والخط من شأنهم ، حتى قال قائلهم اسماعيل بن سيار ، الذى لم يشكر تكريم الخلفاء له :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به
ولى لسان كحد السيف مسموم

من مثل كسرى وسابور الجنود معا
والهرمزان لفخر أو لتعظيم
أسد الكتاب يوم الروع إن زحفوا
وهم أذلوا ملوك الترك والروم
هناك إن تسألني تنبى بأن لنا
جرثومة قهرت غر الجراثيم

وقد رأينا في خطبت زياد بن أبيه ما يشير الى هذه
الفتنة الشعوبية : إياكم ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد
أحدأ دعا بها إلا قطعت لسانه ، كما كان للحجاج موقفه
الشديد إزاءها أيضا .

لقد انتهز قوم من « راوند » فرصة قيام أبى مسلم
الخرسانى بالدعوة الى العباسيين فروجوا معتقداتهم
القديمة القائلة بالطلول والتناسخ . وأرادوا أن
يستغلوها فى التقرب الى أولى الأمر ، فزعموا أن روح
الله انتقلت الى على وأبنائه من بعده ، حتى وصلت
أخيراً الى أبى مسلم الخرسانى الثائر ضد الأمويين .
واستمروا فى فتنتهم حتى نادوا بأن المنصور العباسى
هو ربهم الأعلى .

ثم أخدمت هذه الفتنة ، كما أخدمت فتنة الخرمية
- نسبة الى خرما زوجة مزدك زعيم الإباحية القديمة
عند الفرس - عندما استعان هؤلاء بالبيزنطيين للنيل

من الدولة الاسلامية ، وكذلك قضى على جماعة الحشاشين بالظاهر والباطن والذين قادوا حركة اغتيالات سرية ، كما أخدمت حركة القرامطة التي سعت في الأرض فسادا ، ولم تنج منها الأراضى المقدسة .

وقد لعب الزنادقة أيضا دورا خطيرا ضد الاسلام وضد العرب ، عن طريق التشكيك في الأصول الثابتة ، والدعوة الى التحلل من القيود .

واعتمدوا على المانوية إحدى الديانات القديمة ، وجرحوا رجال العرب وفقهاء الاسلام ، ومجدوا الفرس وتاريخهم . ووجد هؤلاء ، مسرحا لنشاطهم بيوت البرامكة الذين شجعوا للهو ومجالس الغناء بما فيها من منكرات . حتى قال قائلهم :

يبكى على طلل الماضين من أسد
لادر درك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما
ليس الأعراب عند الله من أحد
دع ذا ، عدمتك ، واشربها معتقة
صفراء تفرق بين الروح والجسد

والى جانب هذه الحركات التى ظهرت فى وسط المجتمع الاسلامى وجدت حركات خطيرة فى الخارج

لخفق الدعوة الاسلامية ، وحصرها في دائرة ضيقة ، والعمل على إضعافها حتى تموت . وكان العداء السياسى ظاهرا واضحا في كثير من هذه الحركات ، فاضطر المسلمون الى خوض معارك طاحنة لحماية عقيدتهم وصيانة حدودهم وتأمين طريق دعوتهم ، كما كان هناك عداء دينى وخلقى واجتماعى لهدم الأساس المتين الذى قام عليه بناء الدولة الاسلامية ، وجد منافذ الى قلب المجتمع وأتباعا وأذنايا من الموتورين من الاسلام والعرب لسبب من الأسباب .

المقاومة السياسية :

لقد ظلت الدولة الاسلامية بعد انتقال الرسول ﷺ الى الرفيق الأعلى ، تتابع سيرها ، حامية نفسها من الأعداء بالتسلح ، حتى جاء الطوفان من الشرق يدفعه التتار بجبروتهم ، في وقت كانت الخلافة العباسية فيه أضعف ما تكون عن مقاومته ، فسقطت بغداد سنة ٦٥٦ هـ . وقتل كثير من الفقهاء وعظماء الدولة ، وأحرقت قبور الخلفاء ، وألقى بالكتب في دجلة .

ثم أوت الخلافة الى مصر حيث بايع أهلها سنة ٦٥٩ المستنصر بالله ، ولكنها كانت خلافة صورية لا تستطيع شيئا . وقد شاء الله أن يرد هؤلاء المغيرين فهزمهم

المماليك في عين جالوت بالشام ، في ١٥ من رمضان
سنة ٦٥٨ هـ .

وكانت من قبل ذلك موجات أخرى قد وفدت من
الغرب وعرفت باسم الحروب الصليبية ، ظلت تتدافع
على الأراضى الاسلامية مدة قرنين من الزمان (١٠٩٩ -
١٢٥٤ م) . وكان من أبرز الأسماء التى كتبت فى
لوحة الشرف اسم صلاح الدين الأيوبى ، الذى هزمهم
فى حطين ، وخلص بيت المقدس منهم فى ليلة الإسراء
سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) .

وما زال الغرب يضمّر الحقد للشرق والاسلام فى
شخص صلاح الدين الى يومنا هذا ، ولم يقطعه قول
الجنرال « اللنبى » البريطانى عندما دخل بيت
المقدس بعد الحرب العالمية الأولى : الآن قد انتهت
الحروب الصليبية . ولا قول « جورو » الفرنسى :
هاقد عدنا يا صلاح الدين .

وما كانت الحروب الصليبية أبدا ، كما قال البابا
« أربانوس » الثانى سنة ١٠٩٥ م ، لتخليص المسيحيين
من الأذى الذى ألحقه بهم المسلمون ، فالاسلام معروف
بسماحته التى لا يبارى فيها ، ولقد تحدث « هندريك
فان لون » فى كتابه « قصة الجنس البشرى » (١) عن

(١) ج ٢ ص ٧٩ طبعة الشعب .

سبب قيام الحروب الصليبية ، بعد بيان احترام المسلمين لعيسى وسماحتهم مع الأديان الأخرى ، وظهور الأتراك السلاجقة الذين حموا البلاد الاسلامية من غارات الدولة البيزنطية واستولوا على آسيا الصغرى ، فقال :

إن الامبراطور «الكسيس» استنجد بالصليبيين لحماية القسطنطينية من خطر المسلمين ، وبدأ الصليبيون قتالهم وهم يضمرون أشد البغض للمسلمين ثم تغيرت قلوبهم تغيرا تاما بعد ذلك واحتقروا الروم في الدولة البيزنطية الذين كانوا يخدعونهم ويخونون دعوة الصليب في كثير من الأحيان ، وبدعوا يقدرون خصال أعدائهم المسلمين ، الذين أثبتوا أنهم ذوو مروءة وخصوم أشرف ، والحق أن الحروب الصليبية التي بدأت في صورة حملة لتأديب الأتراك السلاجقة أصبحت منهجا ثقافيا عاما يعلم الملايين من شباب أوروبا معنى الحضارة .

وقد تعرض الاسلام لمحنة أخرى في الأندلس ، ذلك المعقل الذى ظل يؤدي رسالته نحو ثمانية قرون ، فقد أمر الكاردينال « اكسيمنس » أعدى أعداء العرب والاسلام ، سنة ١٥١١ م بإحراق كتب العربية ، والمصاحف المحفوظة في ميادين غرناطة ، ثم تولى ديوان التحقيق الدينى إبادة كل أثر للمسلمين ، إذ

لولا ذلك لزحف الاسلام على أوروبا ، وسادت اللغة العربية فيها ، وكان الحكم للمسلمين عليها .
وعندما ظهرت قوة الاسلام مرة أخرى ، بعد طعنات التتار والصليبيين والأسبان ، بقيام الدولة العثمانية التى تقدمت بفتوحها حتى أسوار فيينا ، تحركت العداوة مرة ثانية فى قلوب الأعداء ، وحيكت المؤامرات للقضاء عليها .

ومن أهم هذه المؤامرات مؤامرة « طرابزون » التى أحبط كل مخططاتها « محمد الفاتح » . ولما رأى البابا أن حيله لم تفلح فى قتال الأتراك أراد أن يدخل محمدا الفاتح فى النصرانية ، فكتب له بذلك سنة ١٤٦٣ م ، ولما لم يفلح استعان بجمهورية البندقية على قتال الأتراك ، وأذاع نداء الى الحرب المقدسة فى ٢٢ من أكتوبر سنة ١٤٦٣ م وباع فى سبيل ذلك صكوك الغفران لإغراء المسيحيين على الحرب ، غير أنه توفى قبل أن ينفذ خطته ، وذهبت جهوده أدراج الرياح .

وظلت الضغينة مألثة قلوب الغرب المسيحي على هذه الدولة محاولين بكل وسيلة القضاء عليها ، وكان من مظاهر ذلك « المسألة الشرقية » التى تستهدف محوها وتوزيع ممتلكاتها .

وقد تحالفت على الضعف والخلل على الدولة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فانهمزمت جيوشها في ميادين عدة وكثرت ديونها حتى أعلنت إفلاسها سنة ١٨٧٤ م ، وكانت الامتيازات ، وتدخل الدول ثم تقسيم أملاكها بين المستعمرين .

كان لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م أثره السيء في اقتصاديات البلاد العربية والاسلامية ، وكانت الكشوف الجغرافية ممهدة للاستعمار والاستغلال ، كما كانت ممهدة للتبشير بالمسيحية ولتكوين الشركات الاستغلالية التي جاء على أثرها الاستعمار .

وقد انتابت أوروبا في القرن التاسع عشر حمى الاستعمار ، ونكب العالم الاسلامى به ، وتوزع بين أعدائه الذين أجمعوا على إضعاف الدين واستغلاله لمصالحهم .

استولى الروس على بلاد التركستان ذات الشهرة الاسلامية العظيمة ، وعلى القوقاز وشمالى إيران ، وتنازلت لهم إيران عن جورجيا وأرمينيا سنة ١٨٢٨م . واستعمرت انجلترا الهند سياسيا عندما ألغت امتياز شركة الهند الانجليزية سنة ١٨٥٨م .

ودخلت أصابع الاستعمار العالم العربي ، فكان من أول التدخل حملة فرنسا على مصر سنة ١٧٩٨ م . وكان التدخل بالديون التي فتح بابها محمد سعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣ م) وبامتياز قناة السويس ، ثم بالاحتلال سنة ١٨٨٢م . وكانت الدولة العثمانية في ضعف دعا الى قيام حركات انفصالية في مصر وسوريا وغيرهما .

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م ، وتونس سنة ١٨٨٢م ، وأطلقت يدها في مراكش بمقتضى معاهدة بينها وبين الانجليز سنة ١٩٠٤م ، وأعلنت حمايتها عليها سنة ١٩١٢ م .

وكان نفوذ الانجليز في السودان الذي أخلاه المصريون (١٨٨٤ - ١٨٨٥م) وبعد انتهاء أزمة فاشودة سنة ١٨٩٩م ، واحتلت عدن وما جاورها سنة ١٨٣٩م ، وكذلك احتلت إيطاليا طرابلس سنة ١٩١١م ، وتخلت عنها تركيا سنة ١٩١٢م .

وبعد الحرب العالمية الأولى تقرر ، في مؤتمر (سان ريمو) في مايو سنة ١٩٢٠م ، الانتداب البريطاني على العراق وفلسطين ، والفرنسي على سوريا ، التي انقسمت الى سوريا ولبنان ، وتقرر إقامة إمارة عربية في شرقي الأردن خاضعة للانتداب البريطاني .

كان من أسوأ آثار الاستعمار إضعاف شوكة الاسلام وإبعاده عن مجال الحياة السياسية ، وحصره في دائرة ضيقة ، بعيدا عن المجتمع ، تطبيقا لمبدأ « فصل الدين عن الدولة » ، ولقد كانت شروط الصلح مع تركيا في مؤتمر « لوران » سنة ١٩٢٣م المعروفة بشروط « كيرزون » الأربعة دليلا على نوايا الاستعمار السيئة ضد الاسلام وهى :

- ١ - قطع كل صلة بالاسلام .
- ٢ - إلغاء الخلافة الاسلامية .
- ٣ - إخراج أنصار الخلافة والفكرة الاسلامية من البلاد .
- ٤ - اتخاذ دستور مدنى بدلا من دستور تركيا القديم المؤسس على الاسلام .

كما كان من آثار الاستعمار الوقوف أمام كل حركة إصلاحية على أساس الدين ، ومن ذلك مقاومتهم لحركة « تيبوتيب » فى الكونغو ، وحركة « رابح ابن الزبير » فى السودان ، وكذلك حركة « عمر تال » ، « أحمد سامورى » ، « عثمان دنفديو » وغيرهم .

وكان من أثر الاستعمار أيضا تفتيت الوحدة الاسلامية بخلق الفتن والمشاكل وقيام الأحزاب وإحياء

القوميات المحلية للحيلولة بها دون قيام جامعة إسلامية عامة ، وليشغل المسلمون بعضهم ببعض .

يقول « لورانس براون » : الخطر الحقيقي كامن في نظام الاسلام ، وفي قوته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي .

وإذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، وأمكن أن يصبحوا نعمة له أيضا ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا قوة ولا تأثير . (١)

وكان من عوامل تفتيت وحدة المسلمين دعوتهم الى التمكين للجهات المحلية كمظهر من مظاهر الاعتزاز بالقومية ، وعدم الالتزام بالعربية وقواعدها ، وقد عقد في دمشق سنة ١٩٥٦م المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية تحت إشراف اليونسكو ، أقيمت فيه محاضرات كثيرة تمجد العامية ، وتدعو الى تبديل الخط العربى وقواعد النحو والصرف والبلاغة وهذه الدعوات الهدامة وأمثالها تقوم باسم التجديد والتطوير وهى دسيسة للعالم الاسلامى ، وتفكيك لأوصاله .

يقول « أمرى ريفر » فى كتابه « قصة الاسلام » :
فالوحدة التى احتفظ بها القرآن قرونا بين الشعوب
الاسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب
الاسلامى قوميات شتى ، فدعاة الجامعة التركية
يرمون الى توحيد فروع معينة من الجنس التركى
ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب
العربية ، ويقول المسلمون فى الهند : إننا هنود أولا
ومسلمون بعد ذلك ، وقد نسى الجميع الصبغة العالمية
التي كانت أساس الدين الاسلامى العظيم .

جاء مع الاستعمار اطلاق يد التبشير فى البلاد
الاسلامية بوسائله المتعددة ، من مدارس ومعاهد
وجامعات وملاجىء ومستشفيات ، وأفلام وصحافة
وإذاعة ودور نشر وندوات ومؤتمرات وما شابه ذلك .
ومما يدل على خطر هذه المدارس على استقلال
الشعوب ما قررته اللجنة التى ألفها مؤتمر «ونبرج»
التبشيرى ، فقد جاء فى القرار ما يلى : اتفقت آراء
سفراء الدول الكبرى فى عاصمة تركيا على أن معاهد
التعليم الثانوى التى أسسها الأوروبيون فى البلاد
الاسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ،
يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول

أوروبا كلها كما نقله مسيو « لوشاتليه » في كتابه « الغارة على العالم الاسلامى » ص ٧٢ (١) .

كما يدل على خطر التبشير أيضا على استقلال الشعوب قول بلفور صاحب الوعد المشئوم لليهود ضد العرب : إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات المستعمرة وعضدها في كثير من الأمور الهامة ، وكان بلفور نفسه رئيس شرف للجنة تبشيرية .

يقول « كالهون سيمون » القس ، مفصحا عن رغبة التبشير القوية في تفريق المسلمين ، التى عبر عنها « لورانس براون » فيما تقدم : إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود ، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية ، ولذلك كان التبشير عاملا مهما في كسر شوكة هذه الحركات ، ذلك لأن التبشير يعمل على إظهار الأوروبيين في نور جديد جذاب ، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها « كتاب التبشير والاستعمار » .

إن المبشرين ينفسون عن الهزائم الصليبية التى منيت بها المسيحية كما يقول اليسوعيون : ألم نكن نحن ورثة الصليبيين ، أو لم نرجع تحت راية الصليب

لنستأنف التسرب التبشيري والتمدن المسيحي ولنعيد في ظل العلم الفرنسي وباسم الكنيسة مملكة المسيح ؟ (١) ومن أخطر المبشرين في القرن العشرين دكتور « صمويل زويمر » الذى توفى سنة ١٩٥٢ . وكان لا يجادل المسلمين بالبرهان ، بل يجيء لهم من الناحية العاطفية ، كبيان أن تأخرهم أساسه الاسلام ، وقد عقد مؤتمرا فى القاهرة سنة ١٩٠٦ م لتنسيق جهود المبشرين على اختلاف طوائفهم ، مع أنه بروستانتى ، لكنه يحاول توحيد كل جهود المسيحية للغارة على الاسلام . كما لجأ الاستعمار الى حيلة أخرى بجانب التبشير ، وهى العمل على إضعاف الشخصية الاسلامية أو القضاء عليها وإذابتها فى شخصيات أخرى ، والحد من التعصب لها ، ومن الحفاظ على مقدساتها ، وفسح المجال للأديان الأخرى أن تشق طريقها الى أذهان المسلمين وتتكيف بها أعصابهم وأحاسيسهم ، وذلك عن طريق المؤتمرات والندوات واللجان والجمعيات والمراكز والمؤسسات التى ينشئونها بعناوين خداعة .

وقد كثرت فى المجتمع الاسلامى الكتب المترجمة عن الفكر الأوربى والأدب الأمريكى ، وفيها أمور فى غاية

الخطورة على العقيدة والسلوك ، تعرض بوسائل مغرية جذابة ، وسيجىء له نموذج بعد ، وغزت الأفلام الأجنبية حقل السينما العربية والاسلامية وفيها سموم كثيرة .

والمجتمع الاسلامى ، وإن كان فى حاجة الى خبرة الغرب ، إلا أنه ليس فى حاجة الى استيراد عقيدته وقواعد سلوكه وأخلاقه ، التى تدل الأمارات على أنها ستؤدى الى تدمير حضارته فى وقت قريب ، إننا فى حاجة الى مواد بناءة لا هدامة ، والاختيار يحتاج الى عقل واع وخبرة واسعة ونظرة بعيدة .

إن جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية التى يعمل « هو بكنز » نائبا لرئيسها ، عقدت مؤتمرات فى « بحدون » بلبنان سنة ١٩٥٤م ، قاطعته شخصيات كثيرة من المسلمين وغيرهم معلنة بها ليست فى حاجة اليه ، ففى الاسلام مثل عليا لا يدانيها ما يقرره المشرفون على المؤتمرات من المبشرين و « هو بكنز » هذا كان قسيسا ومنتسبا لطائفة « المتيودلويت » وله نشاط سياسى لصالح أمريكا وبريطانيا .

إن عناوين هذه المؤسسات وهذه المؤتمرات عناوين براءة خلافة وهى تعطى الفكرة السامة فى قالب حلو

سائغ ، أو بين مذوقات شهية والناقد البصير يرى هدمًا للعقائد والأخلاق .

والصهيونية العالمية هي التي تديرها وتقف من ورائها ، ولها أصابعها وعيونها في كل دولة وفي كل وسط ، ويستطيع رجالها ، بمالهم من خبرة وما مرونا عليه من أساليب ، أن يشكوا أفكار الناس وأخلاقهم كما يريدون ، والمجتمع الاسلامى لا بد أن يتنبه الى هذه المخططات ويعد لها العدة حتى لا يفاجأ بها فينهار وتنهار معه القيم الاسلامية .

المقاومة الفكرية والخلقية :

ذكرنا فيما تقدم بعض مظاهر الحرب السياسية وتوابعها ضد الاسلام في أصله وفي عالميته ، وهي حرب عريقة في القدم اتخذت أشكالاً شتى ، وفيما يلي بعض مظاهر لحرب أخرى اتخذت طابعاً علمياً خلقياً ، وإن يخدم الحرب السياسية ويساعد على الاستعمار .

إن حرب العقيدة والأخلاق قديمة أيضاً ، بل هي أقدم من الحرب السياسية المسلحة ، وقد تولى كبرها المسيحية واليهودية اللتان رأتا في الدين الجديد قوة منافسة تزحهما في ميدان النفوذ .

كانت أساليب الأعداء في هذه الحرب قيادة حملة افتراء وتكذيب لدعوة الاسلام ولشخص الرسول وأصحابه ، واشتدت وطأة هذه الحرب عندما ضاع سلطان الأديان من هذه البقعة الواسعة التي كان يسيطر عليها الاسلام ، وبلغت أشدها بعد الحروب الصليبية وبعد طرد المسلمين من أسبانيا ، فقد تبين تماما للمنهزمين في هذه الحروب أن سبب غلبة المسلمين عليهم هو إيمانهم وأخلاقهم التي تعلموها من كتاب الاسلام ، وحرصوا على التمسك بها والتضحية من أجل الدفاع عنها .

لهذا عمد الأعداء الى كسر هذه الأسلحة المعنوية التي قاتل المسلمون بها أعداءهم وانتصروا عليهم ، يقول : « أتين ذينيه » في كتابه عن السيرة النبوية : ليت شعري ما عسى أن يكون منشأ البغض الذي يضمرة المسيحيون للاسلام ، وهو مع عدم قابليته للتغيير ، يقدم لهم كثيرا من الأدلة على احترامه لعيسى ، هذا . البغض استمر في عصرنا هذا عصر التسامح الديني ، إن لم نقل عصر عدم المبالاة بالدين ، ألكون نشأته آسيوية ؟ ولكن ، ألم تكن المسيحية آسيوية في جوهرها قبل تخليصها من اليهودية بواسطة بولس الرسول ؟ فقد قال عيسى نفسه . إنى لم أرسل إلا لنعاج بنى

إسرائيل الضالة « إنجيل متى ١٥ » . أم من شريعته ؟
ولكن شريعة الاسلام تكاد تكون مطابقة لمذهب بعض
أشباع المذهب البروتستانتي (هذا الاطلاق غير
صحيح) أم من ذكرى الحروب الصليبية ؟ نعم إن هذه
الذكرى رغما من تقادم الزمن لا تزال تفعل فعلها
المشئوم في نفوس كثير من الجهلاء ، ولكنها لا تكفى
وحدها في تعليل حكم الاعدام الذى قضى به على
الاسلام في أوروبا ، فلا بد اذا من تلمس سبب آخر .
انتهى كلامه .

يقول « دير منجم » فى كتابه « حياة محمد » (١) :
حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت
عدة قرون ، اشتد النفور بين الفريقين ، وأساء كل
منهما فهم الآخر ، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة
الفهم كانت من جانب الغربيين أكبر مما كانت من
جانب الشرقيين . وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك
العنيفة التى أرهق بها الجدليون البيزنطيون الاسلام
بمساوىء احتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته ،
هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا
يهاجمون العرب ، فلم تكن مهاجمتهم إياهم إلا تهما
باطلة ، بل متناقضة .

(١) ص ١٣٥ من الطبعة الفرنسية .

لقد كان من مفترياتهم ما جاء في قصيدة « رولان »
وهي أهم منتجات العصور الوسطى الغربية على
الإطلاق ، إن فرسان « شارلمان » قد أسقطوا الأصنام
الاسلامية ، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من :
محمد ، وأبولون ، وتيرفاجان .

كما جاء في رواية ألفت بعد انتهاء الحروب
الصليبية : أن الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة
رجال معا .

وهذه المفتريات لم تروج في العصور الوسطى فقط ،
بل في عصر النهضة كذلك ، بل التاث بها باساكال
ومالبراناش في القرن السابع عشر ، ورينان في القرن
التاسع عشر ، وكازانوفا ودير منجم في القرن
العشرين ، لقد اتهم رينان في كتابه « الاسلام والعلم »
الاسلام بتهم باطلة ردها عليه جمال الدين الأفغانى .

وكما رأيت دور المبشرين في حرب الاسلام نريك أن
المستشرقين الذين عنوا بالدراسات الشرقية ، وبالأخص
منها الاسلامية والعربية حملوا سلاح الكذب والبهتان
والتضليل والتشويه لمبادئ الاسلام وحقائقه ، وعلى
التاريخ الاسلامى أيضا .

وكان أشد هؤلاء حربا للإسلام هم اليهود ، الذين وجدناهم وراء كل حرب ضد الاسلام تقريبا ، وقد تقدم لك ما كتبه « ساوندرز » في مجلة التاريخ المعاصر عن دخول الاسلام في فلسطين وأنه كان مصادفة ، ولم يفكر نبي الاسلام في الدعوة الى دينه خارج الجزيرة العربية .

لقد قام الاستشراق أولا لغرض ديني ، إذ حركت الحروب الصليبية في نفوس الأوروبيين الرغبة في إعادة النظر في شرح كتبهم الدينية وفهمها على أساس التطور الحديث ، الذي تمخضت عنه حركة الإصلاح ، فاتجهوا الى الدراسات العبرانية ثم العربية ثم الاسلام ، وبمرور الزمن اتسع نطاق البحث فشمّل الأديان واللغات والثقافات غير الاسلامية والعربية .

كما أن المسيحيين رغبوا في التبشير بدينهم بين المسلمين ، فاقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وارسالهم الى العالم الاسلامي ، والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكّن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق .

كما كان للاستشراق أسباب أخرى تجارية أو دبلوماسية سياسية ، ولكن يلاحظ أن اليهود قاموا

بالاستشراق لغرض كان دينيا أكثر منه شيئا آخر ، وهذا الغرض هو إضعاف الاسلام والتشكيك فيه بكل وسيلة ممكنة .

وتركزت أهداف الاستشراق ، مع تنوعها ، أخيرا على خلق التخاذل الروحي ، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين ، وحملهم من هذا الطريق على الخضوع للتوجيهات الغربية ، ويحاول المستغلون منهم بالآداب أن يفضلوا أدب الغرب على آداب العرب والاسلام .

ومن أخطر المجالات التي ينشر فيها المستشرقون أبحاثهم مجلة « العالم الاسلامي » التي أنشأها القس « صمويل زويمر » سنة ١٩١١ م وكانت تصدر من « هارتفورد » بأمريكا ، وطابعها تبشيري سافر ، وللمستشرقين الفرنسيين مجلة بهذا الاسم أيضا ، وبهذا الروح وهذا الاتجاه .

وأخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار دائرة المعارف الاسلامية بعدة لغات ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم ، على ما فيها من خلط وزيف وتعصب سافر ضد الاسلام والمسلمين ، والهيئات السياسية والدينية والاقتصادية تغدق على المستشرقين

الأموال الطائلة ، وتحبس عليهم العطايا لتساعدهم على متابعة نشاطهم ، التي يفيدون منها في مجال عملهم .

ومن أخطر هؤلاء المستشرقين على الاسلام الأب «لامانس» الذي ألف كتابا عن الاسلام ، فيه أكاذيب ومفتريات كثيرة ، وهو يعد عند المستشرقين حجة فيما يكتب عن الاسلام ، ودوره في هذه الحرب السلمية كدور «بطرس الناسك» في الحروب الصليبية . يقول هذا الرجل مشككا في شجاعة النبي وشجاعة العرب : زعموا أن العربي متمسك بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الاسلامية الأولى بما امتاز به العربي من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه الى حد كبير ، إن شجاعة العرب إنما هي من نوع غير سام . . ولقد قال عنه «الفونس ايتين دينيه» الذي أسلم وسمى ناصر الدين . فلا مانس جرىء جرأة نادرة ، وتتمثل هذه الجرأة في أنه اذا لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة على خبر واحد يؤكد به زعمه وهواه استغنى عن الخبر وثبت على مزاعمه الباطلة ، التي يسوقها الى القراء في رشاقة بالغة ، وأحيانا يقول : هذا أمر عنى رجال الحديد والخبر بكتمانه .

ومن وسائل العدو في الحرب الدينية ضد الاسلام
إيفاد الأساتذة للتدريس في معاهد البلاد الاسلامية،
وتيسير طلب العلم في بلادهم للمسلمين وتخصيص منح
سخية لذلك ، والعمل على نشر الكتب والصحف
والأفلام والروايات وكل أنواع الثقافة .

وهذه الثقافة التي تحملها هذه الوسائل في خلالها
سموم ضد الأفكار وضد العقائد والأخلاق ، وجدنا
أثرها في الناشئة من أبناء المسلمين وأساتذتهم الذين
تربوا على هذه الموائد ، ووجدنا حرية الفكر والبحث،
والطعن والنقد ، تنشر ويتسع مداها ، دون أن نجد
لها حاجزا يصدّها ، أو مصباحا قويا يكشف ضلالها ،
من ثقافة دينية أصيلة واعية ، ومعارف اسلامية
واضحة ، اللهم إلا شيئا قليلا لا يغنى في هذه الحرب
الطاحنة التي يجب أن تحشد لها كل الأسلحة وأحدثها
وأقواها .

وكان لهذه الثقافات أثرها في التحرر من القيود
والخروج على التقاليد ، وإهدار القيم والانحراف الى
المذاهب الهدامة والتشجيع للأراء الضالة يقول
«أمرسون» في كتابه الذي ترجم أخيرا بمشورة السفارة
الأمريكية : من أراد أن يكون رجلا ينبغى أن ينشق

على السائد المألوف ، ومن أراد أن يجمع ثمر النخيل الخالد ينبغي ألا يعوقه ما يسميه الناس خيرا ، بل يجب عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيرا حقا . لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك . حرر نفسك لنفسك يؤيدك العالم ، الخير والشر اسمان يمكن في سهولة شديدة أن ينتقلا الى هذا أو ذاك ، والشئ الوحيد الصحيح هو ما يتبع تكويني ، والشئ الوحيد الخطأ هو ما يقاومه . « ص ١٣٢ » . ويقول في ص ١٥٤ . إن من ينبذ الدوافع العامة الانسانية ، ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لابد أن يتميز ببعض صفات الآلهة

وفي هذا الكلام الأمريكى دعوة الى التحرر الفكرى المطلق وإيمان كل إنسان بما يمليه عليه عقله ، فالحقيقة هى ما يراها هو لا ما يراها غيره ، فذلك خطأ . وهذا مبدأ كان أحد مبادئ السوفسطائية القدامى المسمين « عندية » ، لا تستقر به حقيقة عامة أبدا ، وهو أصل الفوضى فى الفكر والسلوك ، وهل من مصلحة المسلمين أن يطلعوا على هذه الثقافة ليتخذوها هاديا لهم فى حياتهم ؟ .

يقول الأستاذ محمد محمد حسين معقبا على هذا :
هذا الكاتب وأمثاله يعتمدون على أن الأذكىء سوف
يجدون في كلامهم ما يرضى غرورهم ، أما الأغنياء
فسوف يقفون أمامه مشدوهين كأنهم أمام معجزة ،
وأما الشباب فسوف يجدون فيما يتضمنه من الثورة
التي تحطم ولا تبقى ولا تذر ، مجالا للتنفيس عن
نشاطهم ونزوعهم الى إثبات وجودهم من كل وجه ،
وهذا الكاتب الصهيونى يتعقب شعائر الدين كلها
بالتسفيه والسخرية اللاذعة فالتوبة والندم عنده شىء
آخر ، هو نوع من الصلاة الزائفة ، ونقص فى الاعتماد
على النفس وعجز فى الإرادة ، والرحمة والعطف
لا تقل عن الندم وضاعة « ص ١٥٧ » .

كان أمثال هذه الثقافات من العوامل التى دفعت
الى الشك فى الأديان ، فألحد الكثيرون ، ودفعت أيضا
الى الطعن فى الاسلام من طرق شتى ، فمرة . بأن
القرآن من صنع محمد لم يوح به اليه ، أو أنه أوحى
بمعناه دون لفظه ، ومرة بأنه لم يجمع كله بل ضاع
بعضه ، وبأنه محرف ، لأن فيه مصاحف يوجد فيها
ما لا يوجد فى الأخرى ومرة يقولون : إن السنة التى
نسبت الى النبى لا يصح الاعتماد عليها لعدم الثقة
بطريقها ، ويجرحون كثيرا من الرواة ليصلوا بذلك
الى هدم الأساس الذى كان منه التشريع ، واذا انعدمت

الثقة في الحديث الذي يوجهون اليه طعونهم ، سقط
حصن منيع من حصون الشريعة فيتجهون الى الحصن
الآخر وهو القرآن ليزعزعوا عقيدة المسلمين فيه فإذا
خرجوا منه ، وهو معتصمهم ، كانوا كالغنم المحصنة
في حظيرتها ثم انطلقت فانتهشتها الذئاب لقمة سائغة .

وكذلك يوجهون الطعون الى الاسلام كنظام اجتماعي
أو سياسي لا يصلح للتطبيق في عصور المدنية والحضارة
ويزعمون أنه هو سبب ضعف المسلمين وتأخرهم ،
محاولين إثبات ما يفترونه مع واقع المسلمين لا من
نصوص الدين ، ويحاولون أن يلصقوا بالاسلام ما
يشوه جماله ويشوب صفاءه ونقاؤه ، حتى يبدو للناس
مسخلا يصلح للبقاء في عصر العلم والتجربة .

لقد نشرت صحيفة التايمس أخيرا مقالا تحت عنوان
« الاستعمار والاسلام » ذكرت فيه تقدم الاسلام بسرعة
في أفريقيا ، وأنه يثير القلق عند الأوربيين ، ويخشون
أن يخرق المناطق الاستوائية الى الجنوب .

كما ذكرت أن المفكرين الغربيين اختلفوا في اتجاههم
الفكري نحو مستقبل الاسلام في أفريقيا ، فرأى بعضهم
ضرورة الحد من تقدمه عن طريق نشر البدع والخرافات
فيه ، حتى يكون هذا بمثابة حائل يقف أمام ضغط
الاسلام المتزايد .

ولعل هذا هو السر في أن الاستعمار يحتضن رجال الطرق الصوفية في أفريقيا ، وكثير منهم لا يحسن فهم الاسلام ولا عرضه على الناس ، ويساعدهم على نشر الأباطيل التي تعرض للناس على أنها هي الاسلام ، فيأخذون صورة مشوهة عنه تنفرهم منه فيتملصون أو لا يدخلون فيه .

وبعد فإن حملات التبشير وتضليل المشرقين ، والغزو الثقافي والخلقي ومؤتمرات الاستعمار ، تهدف كلها الى إضعاف شوكة المسلمين وتعمل جميعها في إطار واحد هو محو الشخصية الاسلامية أو إضعاف أثرها ، والحط من قيمة الاسلام والمسلمين في المحيط العالمى . وهذه كلها تحد من التوسع الاسلامى الى حد ما ، ذلك التوسع العالمى الذى يهدد الاستعمار في أفريقيا وآسيا .

وقد أحكم الأعداء هذه المحاولات وسددوا بدقة تلك الضربات خصوصا في القرون الأخيرة ، وركزوا اهتمامهم على العرب في وطنهم الواسع ، وأقاموا حوله حصارا سياسيا واقتصاديا ، موجهين اليه كل أسلحتهم ، لعلمهم أن الاسلام ، وهو دين أغليبتهم ، يقوى بالعرب أكثر مما يقوى بغيرهم ، وأن اعتزاز العرب بعروبيتهم واسلامهم عميق جدا ، وبأن لغتهم هي الرابطة التي جمعت أكثر المسلمين حولهم .

وكانت الهجمات التي وجهت الى مصر موجهة في الحقيقة الى الاسلام والعروبة ، لأنهم يعتبرونها رأس المقاومة ، والجزء العصبى من جسم الأمة الاسلامية ، وقد بدأت الهجمات عليها بالاحتلال الفرنسى فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم بالضغط على مصر لتكون فى جانب الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، وأخيرا وضع الاستعمار شوكة فى قلب الوطن العربى هى «إسرائيل» لتظل عامل فتنة ومثار قلق وجسرا يعبر عليه المستعمرون الى أية بقعة فى الوطن العربى .

ثم ظهر الحقد الكامن عندما قطعت مصر على الاستعمار طريقه الذى ظل يتحكم فى مصائر العرب قرابة مائة سنة ، وهو قناة السويس فكانت حملة سنة ١٩٦٦ على بورسعيد ، وما زال الحقد يأكل قلوبهم الى الآن ، وقد تنفس عن هجوم اسرائيل على الوطن العربى بمساعدة الاستعمار ، وعرقلة كل الجهود لإحقاق حق العرب والتمكين للسلام فى العالم العربى، ولن يزول حقد الغرب علينا ما دامت فينا يقظة وقوة وفداء وتضحية وإيمان بالله عميق ، والله يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون .

يقول « ولفرد كانتويل سميث » فى كتابه « الاسلام فى التاريخ الحديث » ص ١٠٣ :

فالغربيون الداعون للدنيوية يودون أن يروا المسلمين مرتدين عن دينهم ، وإن لم يمكن ذلك فهم يودون أن يروهم بعبيدين عنه طارحين له في زاوية من حياتهم لا يقربونها ، وأن يبنوا مجتمعاتهم كما يبنوها المتحررون ، ولكن ليس ثمة احتمال لأن يتنازل العالم الاسلامى عن صفته الأساسية ، وإلا كان ذلك كارثة له وللدنيا بأسرها .

وصدق الله إذ يقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) . ولم هذا العداة والتربص ونحن ندين بالاسلام والسلام ونحترم جميع الأنبياء ؟ « قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون » (٢) .

(١) سورة البقرة : ١٠٩

(٢) سورة المائدة : ٥٩

جبهات الدفاع عن عالمية الاسلام

لقد وجد في العالم الاسلامى على مر التاريخ رجال تنبهوا الى مؤامرات العدو في الحقول السياسية والثقافية والاجتماعية والخلقية وقد تولت الحكومات الاسلامية أمر الصراع في الميدان السياسى وكان على الشعب أكبر الأعباء في الدفاع عن الدين في الميادين الأخرى الى جانب دفاعهم السياسى بالجهاد .

ألفت الكتب في الرد على الشبهات في العقائد ، وتخليصها من أوشاب الفلسفة والخرافات الطارئة على الثقافة الاسلامية ، وفي تخليص العبادات وأحكام الدين مما دخل عليها من بدع ومنكرات .

وعقدت المناظرات ، وأرسلت الكتب الى الخصوم ، وكانت حركة علمية قوية برز فيها الغزالي في الرد على ما دخل في العقائد من فلسفة ، وفي الدعوة الى تنقية الدين من الأفكار الخاطئة ، وتقويم السلوك على أساس الشريعة الاسلامية ، وكان كتابه « إحياء علوم الدين » صاحب دور كبير في هذا المجال .

وكتب ابن تيمية وابن القيم في الرد على شبهات أهل الكتاب وفي توضيح مبادئ الدين على أساس

معقول ، ونعيا على ما ألصق بالدين في عقائده وعباداته من بدع وخرافات ، ورأيا أن المسلمين بعيدون عن الدين الحقيقي الذى لو عرفوه حقا ، ونفذوه صدقا لما كانوا فى وضعهم المؤلم الذى جعل الأجانب يغيرون عليهم من الشرق والغرب ويتحكمون فى مصير الخلافة .

وجاء محمد بن عبد الوهاب فكانت دعوته امتدادا لدعوتهما ، وكانت من أقوى الحركات التى عرفت فى القرون الأخيرة ، وأبقاها أثرا فى الميدان السياسى والفكرى . كما ظهر فى الهند « شاه ولى الله » الذى عاصر انحلال (امبراطورية المغول) ودعا الى تطهير الصوفية مما شابها ، وقد أصر على أن المسلم الحق يجب عليه ألا يقبل الانحطاط الذى كان سائدا فى عصره وكان يطمع فى إنشاء دولة اسلامية فى الهند على شاكلة دولة المغول ليستعيد المجتمع الاسلامى قوته .

وقد ظهر فى القرن التاسع عشر اتجاهان للإصلاح ، أحدهما للإصلاح الداخلى والآخر للإصلاح الخارجى ولمع فى سماء الإصلاح أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى ومحمد إقبال وأحمد خان .

وكان جمال الدين (١٨٣٩ - ١٨٩٧) يمثل المسلم العصرى فى إمامه بحقائق الدين وبالآراء الحديثة

وربطه بينهما ، وكان نشاطه يتجه الاتجاهين معا ،
وأزر الحركات السياسية في مصر وإيران وغيرهما ،
وكان يرى أن الغرب خطير على الاسلام والمسلمين ،
ولكن لا يفوته الإعجاب بتقدمهم العلمى الذى يجب
أن يحتذى ، وكان يذكر المسلمين بأنهم وحدهم
المسئولون عن مستقبل الاسلام ، فكان يخلق فيهم
الشعور بالمسئولية ، ويحملهم على العمل المتواصل ،
وبين فى كتابه « الرد على الدهريين » الأمور التى تتم
بها سعادة الأمم وهى صفاء العقول من الخرافات ،
ثم الطموح وعلو الهمة وتعشق الحرية والعزة والكرامة
ثم بناء العقيدة على الأدلة الصحيحة والبراهين
القوية .

وكان هو الداعية القوى للجامعة الاسلامية للوقوف
أمام الغرب المستعمر ، وقد لخص « ستودارد » فى
كتابه « حاضر العالم الاسلامى » تعاليمه بالنسبة
للسياسة الخارجية فيما يلى :

- ١ - الدول النصرانية على اختلافها تكيد للاسلام .
- ٢ - الروح الصليبية كامنة فى نفوسهم ضد الاسلام،
فهم لا يعاملونهم أمام القانون معاملتهم لأنفسهم .

٣ - يتذرع الغربيون لاحتلال الشرق بأنهم همج
لا يستطيعون إصلاح أنفسهم .

٤ - كل هذا يدعو الى اتحاد كلمة المسلمين لرفع
نير الذل وتفهم أسباب رقى الغرب .

ومحمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ تتلمذ على أفكار
جمال الدين ، وأيقن أنه لا أمل في إصلاح المسلمين
وتقوية شوكتهم بالوسائل السياسية وذلك لفساد الجو
السياسى من حوله فأمن برسالة العلم الدينى ، وصرف
همه لتحرير الفكر ، وتفسير مسائل الدين تفسيراً
يطابق العلم الحديث .

وتعاون هو وجمال الدين على رد الشبهات ضد
الدين ، وعنى هو وزميله « ميرزا محمد باقر »
بالتبشير الاسلامى ، وكان له حوار مع القس «تيلر»
وكذلك كان الكواكبي ينعى على الاستبداد ويدعو
الى الحرية وتغيير الأوضاع الفاسدة بكل الوسائل
المشروعة .

أمثال هؤلاء الدعاة والمصلحين كان لهم أثر فى إيقاظ
الشعور بالواجب نحو الوطن الاسلامى الذى اختل
توازنه الاجتماعى وتحطت عراه الخلقية وضاع كيانه
السياسى ، ولهذا ألفت جمعيات كثيرة للإصلاح ، منها

ما هو سياسى تمثل فى الأحزاب ، ومنها ما هو دينى وكان الذين تجمعهم فكرة سياسية لا يهتمون بالدين كمبدأ يقوم عليه الاصلاح ، وهذا بالطبع أثر من آثار الاستعمار وتشبع العقول بأرائه وسمومه . ومن كانت تربطهم فكرة دينية كان بعضهم لا يعنى بغير الناحية الدينية البحت القائمة على العقيدة والعبادة ، ولا يهم من أمر المسلمين سياسيا واجتماعيا شىء ، وهى أشبه بمدارس خاصة تقوم على فكرة معينة ، وقد راقب المستعمر نشاط هذه الجمعيات وخشى منها محاولة مزج الدين بالسياسة والخروج بالاسلام عن دائرة العبادة الى النشاط السياسى والاجتماعى كما كان شأنه فى عصوره الزاهية الأولى .

ولا يجوز أن ننسى أبدا فى مجال الاصلاح ، الجامع الأزهر الشريف ، الذى خرج القادة والأبطال ، ووجه الحركة الفكرية فى العالم الاسلامى زمنا طويلا ، واشترك رجاله عمليا فى الاصلاح الاجتماعى والسياسى والنهوض بالوطن ومقاومة المستعمر والجهر برأى الشعب عند الحاكم والولادة .

يقول السيد رئيس الجمهورية العربية المتحدة فى الحفل الذى أقامه الأزهر سنة ١٩٥٤ م ابتهاجا باتفاقية الجلاء وتكريما لرجال الثورة ما نصه :

« وفي هذه المناسبة العظيمة لا يسعنى إلا أن أذكر لهذا الأزهر جهاده على مر السنين ، فقد حمل الأزهر دائما الرسالة ، ولم يتخل مطلقا عن الأمانة وكافح كفاحا مريرا في سبيل الحصول على أهداف الوطن ، وقاسى رجاله وعذبوا ، وقتلوا وشردوا ، واقتحم المحتلون الأزهر ، فلم يتوان عن المطالبة بحقوق الوطن . واستمر الأزهر يحمل الرسالة حتى سلمها للجيش والى عرابى . الذى قام متسلحا بروح الأزهر المعنوية ، الى جانب القوات المادية ، يطالب بحقوق البلاد . وعندما وطئت أقدام المستعمر أرض مصر حاول بكل قواته أن يقضى على رسالة الأزهر ، كما حاول القضاء على الجيش وقوته ورسالته ، ورغم هذا استمر الأزهر على مر السنين يكافح » .

هذا ويجب أن نلاحظ أن الأزهر الشريف كان وما يزال يمثل الجامعة الاسلامية فى معناها الحقيقى ويبرهن عمليا على أن الاسلام دين عالمى ، لأنه يضم من رواد الاصلاح وأساتذة التوجيه فى العالم الاسلامى ما يمثل أكثر من خمسين جنسية فى آسيا وأفريقيا وأوروبا ، وهم يكونون فى ساحة الأزهر وفى معاهده ووكلياته هيئة أمم إسلامية ، تدل بهذا المظهر العملى

على عالمية الدين الاسلامى الذى انضوى تحت لوائه الملايين من الأجناس المختلفة ، والذين رأينا من بعضهم تحمسا وغيره على الدين وشدة تمسك به قد تفوق غيره ممن انبعث نور الاسلام من بينهم . وصاح أول صيحة فى بيئتهم .

إن أروقة الأزهر خلية نحل تموج بهذه الروح الاسلامية التى تنتج نعمة متناسقة من بين قلوب هذه الآلاف الذين تختلف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم ، ولكن لا تختلف أبدا فيهم الروح الاسلامية الجامعة ، وهذا من أكبر المظاهر الدالة على عالمية الاسلام ، يصح أن يكون لوحة فنية تاريخية تعرض فى معارض القرن العشرين دليلا عمليا على هذه الحقيقة .

والى جانب هؤلاء المندوبين عن الجنسيات والبيئات والدول المختلفة الذين يعودون الى بلادهم مصابيح هداية ورسل إصلاح مثلهم فى ذلك مثل الذين يحجون الى الكعبة من أقطار العالم يتزودون عندها خير زاد ويعودون بقلوب كلها عزم على استئناف الجهاد فى الحياة على منهج سليم - الى جانب هؤلاء نرى المسلمين فى أقاصى البلاد ينظرون الى الأزهر طالبين

بإلحاح أن يمدّهم بالكتب والدعاة دليلا على أنه ربط بين الخمسمائة مليون في زوايا الأرض الأربعة برباط العلم الى جانب رباط الدين .

إن فترة الضعف السياسى والدينى التى مرت بالمسلمين أخيرا ومكنت للعدو منهم هى فترة مؤقتة ليست ضربة لازب ، والاسلام ما يزال عالميا فى مبادئه وأصوله ، وإن لم يصلح المسلمون فى فترة الضعف أن يكونوا عنوانا له ، ومع ذلك فإن الدول الاسلامية فى السنوات القريبة - وقد آلمها هذا الكبت الاستعمارى والغزو الفكرى - قامت بانتفاضات قوية نائمة على الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة ، ونال أكثرها استقلالها وبدأ يخطو الخطوات الأولى فى سبيل الإصلاح ، إلا أن التيارات المتضاربة من حولها بعنف وقوة تحاول أن تؤثر على اتجاهات هذه الانتفاضات .

غير أن النزعة الاستقلالية وجهت كثيرا من هذه الدول لتكون سياسة إصلاحها نابعة من بيئتها وواقع تاريخها ومواريتها الأصيلة ، ومن إيمانها برسالتها فى الحياة فى الوقت الذى لا تستطيع أن تعيش فيه منعزلة عن العالم الذى اتصلت أسبابه وتداخلت مصالحه .

ولابد من إيجاد تعاون وتفاهم بين هذه الدول
الناهضة ، لتشتد أركان نهضتها ، وتقوى على مواجهة
الأحداث المفاجئة ، وقد بذلت جهود كبيرة في سبيل
ذلك تهدف جميعها الى تحسين أحوال المسلمين في
القطاعات الخاصة والعامة ، وفي الداخل والخارج ،
وهم بذلك يعطون الدليل على ما في إسلامهم من قوة
وحيوية ، ومن عزة وسيادة ، تلفت أنظار العالم
اليه ، وتغرينا بالعمل الدائب لتوصيل نوره وهدايته
الى المتعطشين اليه في جنبات الأرض .

العرب والرسالة العالمية

تبليغ الدين الاسلامى عالميا مهمة كل مسلم بصرف النظر عن جنسه ولغته وبيئته ، لأن جميع الناس الذين تشرفوا باعتناق مبادئه قد تساووا في الحقوق والنواجيات . لا فرق بين عربى ولا عجمى ، ولا بين أبيض وأسود ، وقد تكون هناك جهود في نشر الدعوة قام بها غير العربى خلدت اسمه في سجل العساملين المخلصين .

ولكنى وضعت هذا العنوان ، لأن شبا كثيرة وردت على عالمية الدين الاسلامى من بينها هذا السؤال .

إذا كانت دعوة الاسلام عالمية ، فلماذا جاءت في بلاد العرب بالذات ، وهى بلاد متخلفة حضاريا ، وكان من المنتظر أن تبدأ الرسالة العالمية انطلاقها من بيئة متحضرة لها إمكانياتها التى تساعد على النهوض بتبعة الدعوة اليها في الإطار العالمى .

كانت بلاد الفرس أو الرومان مثلا من أعظم البلاد حضارة وعمرانا في ذلك الوقت ، فلماذا نبتت دعوة الاسلام في هذه الجزيرة القاحلة ؟

وللإجابة على هذا السؤال نقول :

هذا التساؤل ، كما يقول العلماء ، دورى ، يمكن أن يرد أيضا لو جاءت دعوة الاسلام فى فارس مثلا ، فيقال : لماذا لم تجيء فى بلاد الرومان .

والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته ، ولكن مع هذا يمكننا أن نلمس بعض جوانب الحكمة فى هذه الخصوصية التى كرم الله بها جزيرة العرب ، فكانت مشرق النور للعالم كله ، وكانت استجابة لدعوة ابراهيم « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) .

وفىما يلى بعض المبررات التى رشحت هذه البلاد للقيام بأعظم ثورة فى تاريخ البشرية فى النواحي الانسانية الشاملة :

١ - القوم الذين يحملون عبء الدعوة العالمية لا بد أن تتوافر فيهم صفات تناسب هذه المهمة الضخمة ، من الصبر والتحمل والمخاطرة والشجاعة واحترام العهود والنجدة والمروءة وحب الحرية وتعشق الشرف والسؤدد ، والتمرن على التنقل وتعود الهجرات ،

وعدم التبرم بحياة التقشف ورقة العيش ، والتطلع الى النهوض إذا يسرت سبله ، الى غير ذلك من المؤهلات الخلقية العظيمة .

والعربى فى هذه الناحية كان فارس الحلبة ، لا يبارى فى هذه الصفات التى تتطلبها الحياة المستقبلية ، ولقد أثبت التاريخ ما كان عليه أعظم الدول حضارة قبل بعثة النبى ﷺ من أخلاق صبغها الترف بصبغته الرخوة الناعمة ، وأنس أهلها الى الذل والعبودية بعبادة ملوكها وتقديس عظمائها ، وتسلمت عليهم الأفكار والميول التى خلقها متنبئوهم وفلاسفتهم .

والمأثور من شعر الجاهلية وأخبار الأولين يفيض بصفات النبيل التى كان يفخر بها العربى ويحرص عليها ، لأنه يراها عنوان الشرف والكمال ، ولقد شب النبى ﷺ على خير ما يشب عليه ذوو الفضل واشتهر من صغره بالصفات العالية ، التى ترشحه للزعامة الكبرى ، بما تقتضيه من ترفع عن الدنيا واهتمام بالمطالب العليا ، ومن صدق ووفاء وأمانة وإيثار وكفاح وجلاد ، وعصامية وحرية ، ولقد تجاوزت أخلاقه مع أخلاق قومه وانصهرت جميعا فى بوتقة الاسلام الحرة الخالصة ، وتكون من هذه المجموعة وحدة تتحرك باسم الاسلام ، وتظللها جميعا راية التحرر والنهوض .

وما كانت المصادمات الأولى التي حدثت بين النبي وبينهم إلا نوعا من العناد القائم على عدم الرضا بالفناء في شخصية إنسان آخر حتى طلب كبيرهم أن يكون له وحى ورسالة مثل محمد ﷺ ، « وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن لك حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله » (١) ، « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » (٢) ، كما أن العربى يمتاز بصفاء العقل وتوقد القريحة وقوة الحجاج والفصاحة والبيان والاستنتاج والاستدلال ، وهى أمور لا بد فيها لمن يقومون بنشر الدين العالمى الذى يتطلب شرحا وتفسيرا وجدلا ونقاشا .

لقد كانت مفاخراتهم ومنافراتهم فيها من ضروب القوة ما لا يوجد عند غيرهم من أهل ذلك الزمان ، وكانت فراستهم واضحة فى الاستدلال بالنجوم وظواهر الطبيعة ، وفى القيافة ومقارنة الخصائص الانسانية ببعضها فى الأشخاص المتعددة وإلحاق الانساب على أساسها وعلاقة ذلك بنوع الأفراد أو فصيلة من الفصائل .

ولقد شهدت مقابلات العرب مع كبار الملوك صورا رائعة من قوة الجدل وامتلاك ناصية البيان ، يصور لنا

(١) سررة الأتعام : ١٢٤

(٢) سورة النمل : ١٤

كتاب « الفخرى » مشهدا منها في مقابلة رسل سعد بن
أبى وقاص لرستم قائد الفرس ، حيث سمع منهم حكما
وأجوبة راعته وهالته ، لقد قال لأحد هؤلاء الرسل :
ما هذا المغزل الذى فى يدك ؟ - يعنى رمحه - فقال
له : إن الجمرة لا يضرها قصرها ، وقال لآخر : ما بال
سيفك أراه رثا ؟ فقال : إنه خلق المغمد جديد المضرب ،
وآمن رستم بهذه المقابلات أن هؤلاء الأقبام جديرون
بالأ يقف حذاءهم أحد .

وقد يقال : إن الاسلام وحده هو الذى خلق هذه
المعانى الكبيرة فى هذه القلوب المؤمنة والنفوس
العالية المعتزة بدينها ، لكن معادن العرب كانت نقية
وبذور النبل كانت موجودة ، فقواها الاسلام ونماها
ووجهها وجهة الخير .

وأحيلك أيها القارىء على مقابلة النعمان بن المنذر
لكسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ، وما
تحدث به عن فضل العرب فى عزها ومنعتها وفى
أحسابها وأنسابها وسخائها وجودها وحكمة أسنتها
وديانيتها وشريعتها والدفاع عما عابهم به كسرى من
وأد البنات والتقاتل ، وتصوير ذلك بما يرجع الى
عزة النفس والأنفة من العار وقوة اليأس وخب
الحرية .

وفي مطالعة ما قاله النعمان وما قاله أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة والحرث بن ظالم وقيش بن مسعود وغيرهم ، ما يبين لك تأصل معانى الفضل والنبيل فى نفوس العرب ، وشرف اللسان وقوة البيان ورباطة الجأش ، والصفات العالية التى امتازوا بها على الناس فى زمانهم .

وعلى هذا الوجه يمكن أن نفهم قول النبى ﷺ « إن الله اختار خلقه فاختر منهم آدم ، ثم اختار بنى آدم فاختر منهم العرب ، ثم اختارنى من العرب ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا من أحب العرب فحببى أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضى أبغضهم » رواه الطبرانى عن ابن عمر ، وروى الترمذى مثله وقال : حديث حسن ، كما وردت أحاديث مشابهة أو مقاربة تبين فضل العرب الذين اختار الله منهم نبيه ، رواها البخارى ومسلم .

ففى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت منه » وروى مسلم عن واثلة ابن الأسقع عن النبى أنه قال : « إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ،

واصطفى من قريش بنى هاشم واصفانى من بنى هاشم « (١) » .

٢ - اللغة العربية التي كانت اللغة الرسمية للدعوة الاسلامية ، والتي تأصلت جذورها في الجزيرة العربية ، أحيلك في بيان ميزاتها على ما قاله « ارنست رينان » في كتابه « تاريخ اللغات السامية » حيث جاء فيه : من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عند أمة من الرجل ، تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم أن علمت ظهرت لنا في حلل الكمال ، الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر حتى إنها لم يعرف لها في كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، لا نكاد نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة .

ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فى فضل اللغة العربية :

ولقد عاشت معنا هذه اللغة وهى هى الغنية بكل خصائصها الفنية العالية ، ولهذا كانت جديرة أن تنزل

بها أعظم رسالة للعالم كله في جميع العصور ، تعيش مع الزمن ، وتوفى بكل حاجات الحياة • وتخلد ما خلد هذا الدين الحى ، الذى لا تتخلى عنه مسحته على طول العهد بنزول الوحي ، وكثرة التطور الذى مرت به الانسانية •

٣ - المكان الذى بعث فيه النبى أولا له صلاحية كبيرة لاتطلاق الدعوة منه الى العالم كله ، فالجزيرة العربية فى مكان وسط يتصل بآسيا وأفريقيا وأوروبا ، وهى القارات التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، التى كانت قد أخذت بحظ من التقدم تستعد به لتلقى هذه الرسالة ، ولقد كانت التجارة تعبر بها من الشمال الى الجنوب وبالعكس ، وتصل آسيا وإفريقيا وأوروبا ، فهى شريان حيوى ممتاز فى تلك الحقبة من التاريخ ، يمكن أن ترشح به لتكون مركزا لهذا الدين الجديد ، يوزع منه على الأقطار كلها •

٤ - ذلك الى أن جزيرة العرب فيها البيت العتيق أول بيت وضع للناس ، وبناه ابراهيم أبو الأنبياء ، الذى تدين له جميع الأديان المعروفة فى ذلك العصر ، وفى انطلاق الدعوة منه إشعار للعالم بأن رسالة محمد منبثقة من هذه الرسالة التوحيدية الأولى ، وأنها امتداد لهداية الله للبشر عبر القرون ، ليس فيها

من الغرابة والنفور والشذوذ ما يستحق أن يصرف الناس عنها ، وكان فيه وحيا بأن الأديان التي صادفت ظهور الاسلام لم تعد صالحة لهداية البشر بعد تحريفها وتغييرها وأن الواجب إرجاعها لأصلها الأول الذى انبثقت منه ، وهو الدين القيم الذى كان يدين به أبو الأنبياء .

٥ - هذا ، وقد كانت الأديان الموجودة في العام ممثلة في بلاد العرب في ذلك الوقت ، فكان فيها اليهود والنصارى والمجوس والوثنيون والصائبة وعبدة الجن والملائكة ومن اليهم . وقد وقف الاسلام في مواجهة هذه الأديان ليظهر عليها كلها ، وكان انتصاره على المنتسبين اليها في الجزيرة العربية انتصارا على كل من ينتسب اليها خارجها ، حيث نازل كلامها بالحجة والبرهان ، ومرن المسلمون الدعوة للاسلام على الحجاج مع هذه الطوائف فكانت مهمتهم سهلة في مواجهتهم لأصحابها في البلاد الأخرى ، التي كتب لهم أن ينشروا الدعوة فيها .

٦ - على أن هذه الجزيرة ، قد عهدت في تاريخها الطويل أنواعا من الرسائل ، ولم تكن رسالة الإسلام وحدها هي التي بدأت فيها ، فكان هود في الأجداف جنوبي الجزيرة ، وكان صالح في ثمود شماليها على الطريق الى الشام .

وكان شعيب في مدين عند خليج العقبة ، وكان موسى الذي ناداه ربه بجانب الطور الأيمن على حدود الجزيرة ، و ابراهيم الذي بنى البيت ، واسماعيل الذي رعاه وورثه أولاده من بعده ، فهذه الجزيرة بامتداداتها كانت مهبط الوحي منذ القدم ، ولها عهد بالرسالات تتابعت فيها على مر العصور .

اللغة العربية وتبليغ الرسالة العالمية :

هناك شبهة واردة على عالمية الدين الاسلامى ، وهى نزول القرآن باللغة العربية ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١) ، وقال : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا : لولا فصلت آياته (٢) » وقال : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (٣) ، وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (٤) . فالنص على أن القرآن عربى ، نزل بهذه اللغة لينذر به النبى ، وهى لغة قومه كل ذلك يثير تساؤلا : اذا

(١) سورة يوسف : ٢

(٢) سورة فصلت : ٤٤

(٣) سورة الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥

(٤) سورة ابراهيم : ٤

كان القرآن نزل وبلغ بهذه اللغة ، أفلا يدل ذلك على أن الرسالة هي لقومه العرب فقط ، لأنهم هم الذين يستطيعون أن يفهموا القرآن ويقوموا بتكاليفه ؟ ، وكيف يكلف قوم غيرهم بالاسلام مع أن كتابه لا يفهم بلغة غير العربية ، ولا يمكن التعبد به ولا حفظه مع ذلك ، وليس من عدل الله أن يطالب أمة يوم القيامة باتباع رسول لم يأت اليهم ، ولا وقفوا على كتاب بلسانهم ؟ وقد حكى ابن تيمية هذه الشبهة في كتابه « الجواب الصحيح » (١) .

ويجاب على ذلك بأن جميع الآيات تدل على مجرد وصف القرآن بأنه عربى وليس فيها ما يدل على قصر توجيهه على العرب ، بل ذكرت أن الحكمة فى كونه عربيا تيسير فهمه على الناس وتعقل ما فيه وإمكان تذكره وتدبره ، ومعنى هذا أن اللغة العربية لونها ثقافى فقط لا شأن له فى العصبية والعنصرية ، وقد بلغ النبى الرسالة للعرب بلغتهم وهى لغة القرآن ، والى جانب كون اللغة العربية لغة النبى ولغة بيئته التى نشأ فيها وابتدأ منها دعوته ، فان لها من الميزات على سائر اللغات ما رشحها وجعلها اللغة الرسمية

الأولى لأعظم رسالة في الوجود ، كما سبقت الإشارة إليه .

لقد بلغ النبي الرسالة الى العرب بلغتهم ، والى غيرهم باللغات الأخرى ، فكتب للعظماء والملوك بلغته الرسمية كتبا حملها من يستطيع ترجمتها أو تفهيم ما فيها الى المرسل اليهم بلغتهم أو بوساطة المترجمين كما سبق ذكره ، وقوم محمد الذين أرسل اليهم بلسانهم ، كما تدل عليه الآية المذكورة آنفا ، هم حواريوه والناقلون عنه ، المتحملون لدعوته ، والمبلغون إياها للناس ، فقومية اللغة هنا لا تعنى قومية الدعوة والرسالة ، لأنها ، كما قلت ، لون ثقافى ، والثقافة أمر مشاع بين الأجناس وبين البيئات فى كل العصور ، ولا يصح أبدا أن تكون اللغة أو اللون الثقافى حاجزا يقسم الناس على أساسه بما يفصم عروتهم ، ويطغى على إنسانيتهم الجامعة ، وأداة الحصر فى هذه الآية وهى « ما وإلا » لا تدل على حصر الرسالة ، ولكن على حصر اللسان فى أنه لسان قومه ، ولا يلزم من حصر اللغة حصر الرسالة وجعلها للعرب خاصة .

على أن نزول القرآن باللغة العربية ليس فيه صعوبة لفهم الاسلام ومعرفة ما دعا اليه القرآن

والتزام تكاليفه ، ذكر ابن تيمية : أن شرط التكليف هو تمكن العباد من فهم ما أرسل به الرسول اليهم ، وذلك يحصل بأن يرسل بلسان يعرف به مراده ، ثم جميع الناس متمكنون من معرفة مراده بأن يعرفوا ذلك اللسان ، أو يعرفوا معنى الكتاب بترجمة من يترجم معناه .

وهذا مقدور للعباد . ومن لم يمكنه فهم كلام الرسول إلا بتعلم اللغة التي أرسل بها وجب عليه ذلك ، فإن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (١) .

ثم قال أيضا : وجمهور الناس لا يعرفون معانى الكتب الإلهية ، التوراة والانجيل والقرآن ، إلا بمن يبينها ويفسرها لهم ، وإن كانوا يعرفون اللغة . فهؤلاء يجب عليهم طلب علم ما يعرفون به ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه . ثم قال : فالحجة تقوم على الخلق ويحصل لهم الهدى بما ينقل عن الرسول تارة المعنى وتارة اللفظ ، ولهذا يجوز نقل حديثه بالمعنى ، والقرآن تجوز ترجمة معانيه لمن لا يعرف العربية باتفاق العلماء . وجوز بعضهم أن يقرأ بغير العربية عند العجز عن قراءته بالعربية . وبعضهم جوز

مطلقا ، وجمهور العلماء منعوا أن يقرأ بغير العربية وإن جاز أن يترجم للتفهم بغير العربية ، كما يجوز تفسيره وبيان معانيه (١) .

وقد روج هذه الشبهة اليهود والنصارى . ولكن كيف يتملص اليهود والنصارى من العرب من الإيمان بمحمد لنزول القرآن بالعربية ، وهم أنفسهم يعرفون بحكم إقامتهم أو اتصالهم البعيد المدى . على أنهم هم قبلوا دين موسى وعيسى مع أن الكتاب الذي نزل على كل منهما لم يكن باللغة العربية ، ومع ذلك آمنوا بهما ، إما بتعلم لغة التوراة والانجيل . وإما بنقلهما بطريق الترجمة . وقد ثبت أن هؤلاء اليهود والنصارى جادلوا النبي ﷺ في أمور عرفوها من القرآن . فوسيلة العلم بالرسالة كانت ميسرة بأى نحو من الأنحاء فلا حجة لهم في التملص من المسئولية .

هذا وقد قال الزمخشري في معرض الحديث عن عموم الدعوة الاسلامية ، مع نزل القرآن باللغة العربية : لا يخلو إما أن ينزل - القرآن - بجميع الألسنة ، أو بواحد منها . فلا حاجة الى نزوله بجميع

(١) المرجع السابق ص ١٩٦

الألسنة ، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل ، فبقى أن ينزل بلسان واحد ، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب اليه ، فاذا فهموه عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهمه ، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم . كما يجب أن يعلم أن فهم كل آية من القرآن ليس فرضا على كل انسان ولو كان مسلما بل تجب معرفة ما أمر الله به بأية عبارة كانت .

واجبنا نحو الدين العالمى

الآن وبعد أن عرفت أيها القارئ الكريم أن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد التى يحمل خصائص الدعوة العالمية ، وأنه الدين الوحيد الذى ختمت به الأديان وصلح لكل تطور فى الحياة البشرية على اختلاف بيئاتها ومستوياتها ، وعرفت تاريخ المؤامرات التى حيكت ضده لتجد من نشره أو تشوه من جماله ، ومقدار ما تبذله الأديان الأخرى ، وبخاصة المسيحية ، فى محاولة الانتشار فى العالم على نطاق أوسع ، ومقاومة زحف الإسلام الذى يكاد بقوته الذاتية أن يطيح بمخططات الأعداء ، وما ينفق فيها من أموال طائلة .

بل إن الأعداء وهم يحملون لواء التبشير العالمى ، لم يستحوا أن يبشروا بدينهم فى وسط المجتمع الإسلامى ليحولوا المسلمين عن دينهم ويسلخوهم من شخصيتهم ، ورأيت الوسائل الخفية التى وضعوها ليصلوا الى غرضهم فى غفلة لا يشعر معها الضحية أنه وقع فريسة لهذه الأساليب الدنيئة .

الآن يجب علينا أن نتنبه ونستيقظ ونعرف واجبنا نحو هذا الدين الحنيف ، يجب علينا أن نتابع الدعوة اليه ، ونزيد من نشاطنا في هذا المجال ، لأنه لا ينبغي أن ينشط الأعداء ، مع ما هم عليه من باطل ، في نشر أباطيلهم ، ثم نقف نحن ساكتين أو متخاذلين ، مع ما نملك من دين عالمي أمرنا بالدعوة اليه على نطاق واسع ، وكنا بالدعوة اليه والى كل خير ، خير أمة أخرجت للناس .

والمشاهد أنه توجد في الغرب الآن حركتان قويتان تتصلان بالشرق والاسلام :

(١) أما الحركة الأولى : فهي الاهتمام بالشرق من أجل غرضين : استغلاله واستعماراه . وهو من أجل ذلك يبحث في علومه ومعارفه وحضاراته وإمكانياته ومنابع الثروة فيه ، ودراسته دراسة وافية ليعرفوا المنافذ الى استغلاله ، والطريق الى السيطرة عليه ، إن لم تكن سيطرة عسكرية أو سياسية فلتكن سيطرة اقتصادية أو ثقافية أو سيطرة من أي نوع آخر .

والناظر في دراساتهم يعجب لهذا الانتاج أشد العجب حيث توفرنا عليها ، وجاعتهم الامدادات والامكانيات الواسعة ، واستطاعوا أن يكتشفوا مناطق مجهولة

لأصحابها ، وأن ينشروا كتباً وأبحاثاً لم يتنبه المتصلون بها إلى قيمتها ، ولم يستطيعوا أن يخرجوا مثلها ، حتى صارت الدول الشرقية تتلمذ على هذه الأبحاث والاكتشافات ، وكثير من هذه الأبحاث والدراسات خاص بالاسلام والمسلمين .

يقول « د . ج . ريشتر » : إن التطور الاسلامي قد أصبح من أكبر الحوادث التاريخية للعصر الحاضر ، فيجب تتبعه بأكثر ما يمكن من الانتباه .

وقد أنشئت كراسي في معظم الجامعات الغربية لهذه الدراسات العربية والاسلامية والشرقية . فلا يجوز للشرق وللمسلمين بخاصة أن يكون غافلاً وسط هذا الضجيج العلمي ، ولا أن يكون منصرفاً عن تراث أو قضية يحشد الغرب لها الحشود الواسعة الضخمة .

(ب) والحركة الثانية : هي البحث عن دين عالمي تطمئن إليه النفس ، ويحل المشاكل الداخلية المعقدة ، التي لا يستطيع العلم حلها ، ذلك لأن العلم على الرغم من تقدمه السريع في الغرب ، لم يستطع أن ينجح إلا في المسائل المادية .

أما المسائل الأدبية والنواحي الخلقية والفضائل النفسية فلم يستطع العلم أن يمسه بالتهذيب ، فإن

النفوس ما تزال ترتفع في حمأة الحيوانية وتدفع بأصحابها الى ارتكاب كل ضروب الوحشية ، فهى فى حاجة ماسة الى رادع قوى من أدب عال فوق الوجود المادى الذى أغرقوا فيه .

ولهذا فإن العالم المتمدين أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها . وقد مر بك بيان ما تطلبوه من مواصفات للديانة الطبيعية التى ينشدونها ، وأن الاسلام جاء بأحسن منها فى كل مجال من المجالات ، والانسان مهما كان عنده من علم أو معرفة لا يستطيع أن يستغنى عن الدين أبدا بصورة من الصور .

يقول « أوجست سباتييه » فى كتابه « فلسفة الأديان » :
« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا رأيتنى محفوزا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، فالدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أشر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضت على نفسى كثيرا بهذا الاعتراض عينيه ، ولكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها ، وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكبر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية ، فهى ليست أقل تشبها منى بأهداب الدين

..... الى أن قال : فالدين إذاً باقٍ وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن نضوب ينبوعه بتمادي الزمن ، نرى ذلك ينبوع يزداد اتساعاً وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة » .

ويقول « أرنست رينان » في كتابه « تاريخ الأديان » :
« من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والفن ، ولكن يستحيل أن يبطل التدين أو يتلاشى ، بل سيبقى أبد الآباد حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يود أن يسود ويحصر الفكر الانساني في المضائق الدنيئة للحياة الترابية » .

ونحن لا ننكر أن في الغرب أيضا حركة ضد الأديان ، ولكنها في حقيقتها موجة ضد أشكالها الخارجية ، لا ضد روحها ومعناها بل للدين الخالص اليوم في الغرب دولة لم تكن في أي عهد من عهود المدنيات السابقة ، فأى دين من الأديان الموجودة يستطيع أن يثبت أنه هو الدين الخالص من التقييدات البشرية ، كان هو الدين الذي ينشده العلم وتأييده الفلسفة .

فإذا كان الغرب يهتم بالبحث عن دين عالمي يتفق مع مقررات العلم ، كانت الفرصة سانحة لبنين ذلك للعالم ، ليروا في الاسلام طلبتهم التي ينيشودونها من زمن طويل . لهذا كله يجب علينا أن ننشط في تبليغ الدعوة العالمية ، حتى لا تطغى عليها الأديان الأخرى، ونصاب نحن من شررها .

منهج الدعوة الى الدين العالمى

إن التخطيط أمر ضرورى لنجاح كل مشروع ، والعمل اذا لم ينفذ حسب خطة موضوعة واضحة المعالم والأهداف ، مستوفية كل الامكانيات ، قل أن يكتب له النجاح ، والعمل العظيم الخطير لا بد له من تخطيط يناسب عظمته وخطورته .

والدعوة الى الدين الاسلامى العالمى من أعظم الأمور خطرا وأجلها قدرا ، وبخاصة اذا كانت الظروف المحيطة بها ظروفًا متغيرة حسب تغاير الميدان ، واذا كانت فى محيط يختلف فى لغته عن لغة الداعين ، ويختلف فى عاداته وسائر أحواله السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها .

وعلى ضوء ما سبق من عمل الرسول وأصحابه فى نشر الدعوة نستطيع أن نضع منهاجا نحاول به أن نرسم الطريق الواضح للدعوة الاسلامية ، وهو كله من وحى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » (١) .

أولا :

لابد من دراسة وافية شاملة للبلاد التي توجه اليها الدعوة من جهة نظام الحكم والمذهب الاجتماعى والعقيدة والعادات والامكانيات المادية وظروفها المختلفة . ذلك أن ظروف العالم تتغير من زمن الى زمن ومن منطقة الى منطقة ، فقد تكون الدعوة ميسرة في مكان ما ومتعثرة في مكان آخر ، وقد تكون الموضوعات الهامة لمنطقة من المناطق غيرها في منطقة أخرى ، وقد تتطلب ظروف بلد مبعوثا معيناً من طراز خاص يتناسب مع جو البلد الذى يوفد اليه ، الى غير ذلك من الاعتبارات المختلفة .

وهذه الدراسة مهمة للغاية ، فان التقصير فيها يعنى السير على غير هدى والتخبط في طريق الدعوة ، ونتيجة ذلك العقم في الجهود والأضرار البالغة التي تكون بمثابة رد فعل للجهل والاندفاع الأعمى والتسرع الأحمق ، ويرحم الله القائل :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقا عن غرة زلجا

إن هذه الدراسة الواعية هي أساس التخطيط للدعوة ، وهي تتطلب جهدا كبيرا وزمنا واسعا ،

والغرب حين أراد أن يستغل ثروات الشرق أو يبسط نفوذه عليه ، أنشأ العراسات الواسعة والهيئات العلمية الضخمة التي تضم كبار المختصين في جميع الفروع مع إغداق الأموال على هذه الجهود ، واستمعروا يجمعون المعلومات تحت أسماء مختلفة ، وبشعارات خلافة خداعة ، حتى استطاعوا أن يعرفوا من دقائق البلاد مالا يعرفه أهلها ، وحتى استيقظ الأهالي فوجدوا أنفسهم تلاميذ لهؤلاء الأجانب أخص ما كان يجب عليهم أن يعرفوه .

وبعد هذه المعرفة الشاملة استطاعوا أن يخططوا للوصول الى الأغراض التي يريدونها ، فكان عملهم سليما ، وجهدهم مثمر لأنه قام على أساس متين .
فالدعوة الاسلامية للدين العالمي لابد لها من دراسة واعية للأرض التي تلقى فيها البذرة ، ومعرفة أجوائها المختلفة ليتمكن أن نجنى من وراء الجهد ثمرة طيبة .
وإن من الحمق أن نجمد على أسلوب معين اتخذه السابقون في نشر الدعوة لنسير عليه ولا نحيد عنه ، ونردد قولنا : الاتباع خير من الابتداع ، ونطبقه على عمومه في كل المجالات ، ذلك أن الظروف تتغير والعالم يتطور ، والبلاغة في القول والعمل هي مراعاة مقتضى الحال .

ثانيا :

لا بد من الافادة من طرق المبشرين والدعاة الى الأديان والمذاهب الأخرى ، ودراسة أساليبهم وخططهم في الدعوة ، لنقرع الحجة بالحجة إن كان هناك نزال في الميدان ، ولنقاتل العدو بالسلاح الذي يقاتل به إن اضطررنا الظروف الى مثل هذه المواقف .

والى جانب هذا فإن أساليبهم قد تفتنوا فيها وابتكروا منها كثيرا ، لأنهم فكروا فيها في وقت كانت الامكانيات فيه متوفرة لديهم وكان العالم فيه على درجة من النضج والرقى تستحق معها أن يعمل الحساب في الدعوة بدقة وتناسب ، ولهؤلاء الدعاة تنظيمات وترتيبات لم تكن أمثالها موجودة في العهود الماضية ، فالدعوة الاسلامية مثلا في أيام الضعف السياسى للدولة الاسلامية اتخذت طابعا فرديا خالصا ، فكان لكل فرد أسلوبه الخاص في نشر الدعوة قل أن يفيد منه داع آخر ، ولكن المهمة الآن ضخمة وشاقة لأن لنا أعداء ينافسوننا الدعوة الى أديانهم ، بل يحاولون أن يخرجوا المسلمين من دينهم ، فلا بد من أن تكون عندنا يقظة تامة ومعرفة بأساليبهم لنفيذ منها في هذا الميدان ولا نقنع بما عندنا من خبرة قليلة أخذناها من الماضى ، فإنها قل أن تنجح في الوقت الحاضر أمام الخبرات الحديثة .

إن القائمين على التبشير يضعون خططا منظمة محكمة ، لأنهم جماعة متخصصون في فروع كثيرة من العلم يخدم بعضها بعضا ، وبضم خبراتهم ونتائج تخصصاتهم يوجد منهج مدروس متكامل واضح قوى نفاذ .

إن الحصيلة العلمية عند الداعية غير المسلم قليلة بل ضئيلة ، وهى الحصيلة الدينية التى يريد أن يبث فكرتها بين الناس ، لكن حسبهم من الدعوة أن يلقوا بذرة واحدة فى أرض واسعة بطريقة علمية ومنهج محكم ، ستتمو وتثمر وتعطى النتيجة المطلوبة .

وعلى العكس من ذلك يكون بعض الدعاة المسلمين، إنهم يملكون حصيلة علمية دينية ضخمة ، وقصارى جهد الواحد منهم أن يفرغ كل ذلك فى وسط قوم يظفر منهم فى النهاية بكلمة إعجاب على ما يملك من علم ، دون أن يكون لذلك أثره العميق العملى المنتج ، كالذى يفرغ قنطارا من البذور فى أرض سبخة أو بطريقة غير منظمة ، ويكفيه أنه أدى ما عليه بإفراغ جعبته فى هذا الحقل ويطول به الانتظار لا يرى لجهد أثره .

إن قيمة العلم والجهد مرتبطة بالنتيجة والتجاوب الذى يكون من السامعين مع العلماء ، وهذا التجاوب

له فن وراء غزارة العلم ، وهو التنظيم الدقيق وتحرى الأوقات والأماكن المناسبة والخبرة بميول النفس وقواها والانفاق من العلم الذى يلائم كل ذلك .

إن رصاصة واحدة يحكم الرامى تصويبها فتصل الهدف خير من ألف رصاصة تنطلق بغير هدف تتجه إليه ، والجاهل بالسباحة ينزل الماء فيظل يضرَب فيه بقوة على غير هدى فتخور قواه ويفشل وقد يغرق ، والسباح الماهر يستطيع بقوة قليلة منظمة أن يصل الى هدفه بسلام .

لا عيب أبدا أن نفيد من تجارب الغير مهما كانت عقيدته واتجاهاته ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها ولا يضره من أى وعاء خرجت ، لقد أفاد النبى ﷺ من خبرة سلمان الفارسى ، فحفر الخندق حول المدينة فى غزوة الأحزاب ، كما كان يفعل قومَه عند الحروب ، وتطور الحياة يفرض على الناس أن يتبادلوا الخبرات طوعا أو كرها .

إن الدعوة الى الأديان كالحرب بل هى حرب ، لابد فيها من التفنن فى الأسلحة ووسائل القتال ، ودراسة الميادين والتخطيط للمعركة قبل خوضها .

ورب جيش قليل العدد وافر الخبرة والتنظيم يهزم جيشا كبير العدد تقل فيه الخبرة وتسوده الفوضى ،

فليكن سلاحنا كسلاح العدو ، إن لم يكن أحسن منه ،
وليكن تدريبنا الميدانى كتدريبه إن لم يتفوق عليه ،
والبقاء - كما هو معروف - للأصلح ، ومن الصلاح
النظام وجودة الأداء ،

ثالثا :

لا بد من إنشاء جهاز يوجه الدعوة ويعد لها كل
الإمكانيات والترتيبات المختلفة ، يكون هذا الجهاز
جامعا لأرباب الفكر العالى والتخصصات الفنية
المختلفة التى تتصل بالدعوة ، وتكون مهمته الأولى
الأساسية هى الدعوة النقية الخالصة بعيدة عن
المؤثرات المحلية والأغراض الخاصة ، ولو أن هذا
الجهاز كان واحدا للعالم الإسلامى كله يختار له مقر
يصلح ليكون منه المنطلق للدعاة والدعوة وتشارك فى
إدارته والإشراف عليه شخصيات عالمية تمثل الدول
الإسلامية ، لكان ذلك أوفق .

ولعل مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر
الشريف ، والذي يضم مؤتمره علماء العالم الإسلامى
وأقطاب الفكر فيه ، يكون خير من يقوم بهذا الدور .

ولعل القاهرة فى موقعها المتوسط بين العالم
الإسلامى ، وفى إمكانياتها الواسعة تكون أنسب مكان
لهذا الجهاز الموجه للدعوة .

ومهما يكن من شيء فإن التفكير في تخصيص جهاز واحد للدعوة قد يكون أفضل من تفرق الجهود وإقامة مراكز وأجهزة مختلفة في بلد واحد أو بلاد متعددة لا تجمعها رابطة واحدة ، على أنه إذا وجدت أمثال هذه المراكز المتعددة فليكن لها جهاز واحد ينسق جهودها ويخطط لها التخطيط العام ، ويرسم لها السياسة الموحدة التي تلتزمها حتى تضمن لها التوفيق والنجاح ، وعدم التعارض والتضارب كالذي كان يحدث بين جمعيات التبشير التي أنشأتها الدول الاستعمارية ووجهتها لتمهد لها الطريق لكسب أكبر عدد ممكن من الأنصار ، وأكبر مساحة من النفوذ ، فهذه الجمعيات لم تكن مخلصه في الدعوة الى دينها أو مذهبها ، بل كان الغلب والتصارع طابعها ولهذا فشل كثير منها ، ولم تستطع أن تنافس الدعوة الاسلامية على ما عندها من بساطة في وسائلها ، فقد كانت تزحف بجهود التجار والرحالة والمهاجرين وما إليهم ، لقد نشرت جريدة « يونيفرس » الكاثوليكية ، أن عدد من اعتنقوا الاسلام خلال الخمسة والعشرين عاما الأخيرة في أفريقيا بلغ أكثر من عشرين مليوناً ، مقابل أقل من عشرة ملايين اعتنقوا المذهب الكاثوليكي على أيدي رجال الارساليات (١) .

لقد انصرف الناس عن هذه الارساليات عند ما ظهرت نواياها السيئة ، وأقبلت على الاسلام كما سبق بيانه ، لأنه لا يقصد الى غرض استغلالي من معتنقيه .

ولسوء نيات الارساليات حدثت مصادمات عنيفة بينها أدت الى القتل ، لقد أرسل « جوان الثانى » ملك البرتغال سنة ١٤٨٧ م مبشرا اسمه « كوفيلهام » الى الحبشة فأنشأ علاقة قوية بينها وبين البرتغال ، واستطاع أحد الرهبان الذين جلبهم الى الحبشة أن يحول ملكها (سو سينيوس) الى الكاثوليكية سنة ١٦٢٤م ، واستعد الأحباش للانضمام الى الكنيسة الرومانية لولا عناد بطريرك اللاتين (مندر) الذى أكرههم على اعتقاد الشعائر اللاتينية ، وأراد تأسيس ديوان تفتيش ، فثاروا وقتلوا المبشرين البرتغاليين ومن تبعهم من الأحباش سنة ١٦٤٠م . وحاولت فرنسا التبشير بالحبشة فلم تفلح وقتل مبشروها المرسلون الى سواكن ومصوع ، كما نافستها ايطاليا أيضا فى هذا الميدان .

لقد كان للمذاهب المسيحية مبشرون ، ولكل دولة مبشرون وحدث ما حدث من التنافس نتيجة لعدم الاخلاص فى الدعوة ، الى الدين ، واذا كنا ننادى بوحدة الجهاز الذى يشرف على توجيه الدعوة

الاسلامية في العالم فذلك لكى نتلافى أمثال هذا التنافس بسبب الميول والأغراض الخاصة للدول والجماعات .

لقد قال المسيو (بونيه مورى) فى كتابه (الإسلام والمسيحية فى أفريقيا) ملخصا لجهود المبشرين فيها : إن نجاح هذه البعثات الإنجيلية كلها فى أفريقيا دليل على كون قوة الدعوة النصرانية لا تغلب فيما لو تجردت عن الأغراض السياسية ، فانه لا توجد آفة على التبشير أعظم من المآرب الاستعمارية .

إن التفكير فى تكوين جمعيات وإنشاء منظمات وأجهزة لمباشرة الدعوة بطريقة منهجية منظمة تفكير حديث فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، وقد كانت تركيا تبحث فى إنشاء جمعية فى القسطنطينية لنشر الدعوة فى أوغندة ووسط افريقيا على أثر ما كتبه الرحالة الشهرير « ستانلى » سنة ١٨٧٥م فى الصحف الانجليزية يحث على إرسال مبشرين الى أوغندة ، ولكن لم يتم تأليف هذه الجمعية بسبب نشوب الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٨م ، وكذلك فكرت مصر فى هذا الموضوع عندما حددت الحكومة المصرية الانجليزية فى السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية ، وفى سنة ١٩١٠م أسس السيد محمد رشيد رضا جمعية

في القاهرة كانت تهدف الى تأسيس دار للدعوة والإرشاد .

وشبه القارة الهندية خطت خطوات واسعة في تكوين هذه الجمعيات ، ومن أحسنها : جمعية « أنجومان حامى إسلام » في « أجمير » وجمعية « أنجومان حمايت إسلام » في « لاهور » ، وجمعية « أنجومان وعظ إسلام » ، « أنجومان تبليغ إسلام » في حيدر آباد الدكن . وكانت ترمى الى تحويل الهندوكيين الى الاسلام .

ومن الجمعيات التي أنشئت في القرن العشرين « مدرسة إلهيت » في « كونبور » لنشر الرسائل للدفاع عن الاسلام ، وجمعية « أنجومان هدايت إسلام » في « دهلى » أعظم الهيئات المنظمة ، وينضم اليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعاً وعشرين ، وترسل هذه الجمعية الدعاة للدعوة الى عقائد الاسلام وعقد المناظرات مع غير المسلمين ، وتقوم بنشر الكتب التي ترد على هجمات الجمعيات المعادية .

ومن الهيئات التي تحمل عنوان الدعاية للاسلام ، جمعية التعريف الدولى بالاسلام في القاهرة ، والمجلس الأعلى للشئون الاسلامية بوزارة الأوقاف بالقاهرة ، الذى يرسل الكتب والمصاحف لكثير من البلاد الاسلامية

المحتاجة الى التزود من المعارف الدينية ، وينشر مجلة ومطبوعات باللغات المختلفة ويرسلها الى بلاد كثيرة . والأزهر هو المؤسسة الأصلية التي تضطلع بأكبر نصيب في هذا الميدان ، نظرا لمركزه في العالم وثقة المسلمين به ، وله بعوثة الكثيرة في الخارج وكتبه ومصاحفه التي يرسلها الى العالم الاسلامى والمعاهد التي يشرف عليها في خارج القطر ، والمراكز الاسلامية في أهم البلاد في أوروبا وأمريكا وبالمجلة التي تخصص جزءا منها باللغات بالأجنبية ليفيد منها من لا يعرفون العربية من مسلمى العالم ، وباستقباله لوفود الطلاب من جميع أنحاء العالم ، يعلمهم ويرعاهم ماديا واجتماعيا ، حتى يعودوا الى بلادهم رسل هداية وإصلاح ، ولو مكن للأزهر فكان نشاطه أوسع وأثره أعظم . وهذا هو أملنا في عهده الجديد ، وبخاصة في هذه الظروف التي تحتاج الى مزيد من العناية بالناحية الروحية في العالم أجمع .

رابعاً :

لا بد من إعداد الداعى الذى يتولى نشر الدعوة العالمية فى الأقطار الخارجية ، واعداده يقوم على ثلاث دعائم أساسية هى التمكن العلمى ، أى وفرة

المادة وصدقها ، الدراية الفنية التي تساعده على حسن استعمال هذه المادة ، والكمال الخلقى والخلقى .

١ - التمكن العلمى هو زاد الداعى ، فليس كل انسان يصلح لأداء هذه المهمة ، والداعى سيتحدث أو يرغم على التحدث فى موضوعات شتى يفرضها عليه واقع البيئة التى يدعو فيها ، والظرف الذى يتحتم عليه مراعاته ، فلا بد أن يكون عنده علم بكل ما يمكن أن يوجه اليه من أسئلة أو يطلب منه من حديث .

وقد كان النبى ﷺ يختار مبعوثيه ويتأكد من مقدرتهم العلمية فى النوع الذى يوفدون من أجله ، ومن كيفية التصرف فى المواقف الحرجة ، حتى يطمئن اليه ويرجو الخير من وراء بعثه . لقد زود النبى ﷺ معاذ بن جبل بالمعلومات الكافية والتوجيهات اللازمة عندما بعثه الى اليمن فقال له : « إنك تأتى قوما من أهل الكتاب فادعهم الى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوك لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن

هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتفق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » (١) .

وبعد أن زوده بالقدر اللازم من العلم في مهمته التي أرسل من أجلها اختبر مدى قدرته على التصرف عندما يجد شيء لم يتلق العلم به أو التوجيه بخصوصه ، قال له : كيف تصنع إذا عرض لك قضاء قال : أقضى بما في كتاب الله . قال فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم يكن في سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد برأى لا ألو جهدا . قال معاذ : فضرب رسول الله صدري ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » (٢) .

إن الثقة العلمية مطلوبة فى الداعى كما يشير اليه قول الرسول ﷺ فيما سبق « نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمع » أى أداها أداء صحيحا متقنا لا تزيد فيه ولا تشويه بحال .

وللتمكن العلمى مظاهر نشير الى بعضها فيما يلى :
(أ) أن يكون على معرفة تامة بأحكام الكتاب والسنة ، فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وغيرها ، وعلى دراية كافية بالسيرة النبوية والتاريخ

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه أبو داود والترمذى .

الاسلامى ، وبالجمله أن يكون عالما بالعلوم الأصيلة للثقافة الاسلامية بفروعها المختلفة ، لأن الداعى سيكون ممثلا للدين كله وللمعهد الذى أوفده ، فلا بد أن يكون خير ممثل للدين ولمعهدده .

(ب) أن يجمع الى العلم القديم علما حديثا بالمعارف المختلفة التى توضح العلوم الدينية بأسلوب العصر ، لأن الناس ينتظرون من ممثل الدين ومعهدده أن يكون حجة فى العلوم الشرعية ، أو خبيرا وقديرا بالنوع الذى ينشره ، كما تنتظر منه أن يكون نموذجا مشرفا يعيش مع العصر وأحداثه ، ويتصل بالمجتمع وما يعج به من مشاكل ، وبالثقافة وما تتنفس عنه من معلومات لأن ذلك كله ، الى جانب وضع الثقة فيه والاحترام له ، يساعده على إبراز مبادئ الاسلام وهداياته إبرازا ميسرا .

(ج) أن يكون على دراية بلغة القوم الذين أرسل اليهم ، فاللسان أكبر وسيلة للاندماج مع الناس والالتحام بهم ومعرفة أحوالهم ، وأيسر طريق لإيصال المعلومات الدينية اليهم وحسن تفهمهم لها ، والعاجز أو الضعيف فى لغة القوم مقيد بالأغلال لا يستطيع التحرك ولا الانطلاق ، وأعمى لا يهتدى الى الطريق إلا بمن يأخذ بيده ويعتمد عليه .

ولعل هذا هو السر في أن الرسل تبعث بالسنة
أقوامها كما قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا
بلسان قومه ليبين لهم » (١) .

والتعبير بالتبيين فيه إشارة الى التمكن من اللغة ،
لأن التبيين شرح وتوضيح ولا تفيد فيه شذرات لغوية
أو عبارات مبهمة غير واضحة ، بل ولا أساليب غير
قوية . وقد رأيت فيما سبق أن رسل النبي بالكتب
الى الملوك كانوا على علم ، ولو الى حد ما ، بلغات
البلاد التي أوفدوا اليها ، وكانت مهمتهم بسيطة لا
تكاد تعدو الدعوة العامة الى الإيمان ، ولكن
الذين كانوا يقيمون ليعلموا الناس كان لا بد فيهم
من إجادة لغتهم . وقد أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن
يتعلم لسان اليهود لمعرفة كتبهم الواردة منهم ،
وللاتصال بهم اتصالا صحيحا مطمئنا . وكان أبو جمره
يترجم بالفارسية بين ابن عباس وبين وفد عبد القيس
كما رواه مسلم (٢) .

وكتب النبي ﷺ الى بعض القبائل كانت تراعى
فيها لهجاتهم وألفاظهم التي يتفاهمون بها ، وكان
رده على وفودهم مناسبا للغة التي تحدثوا بها ،

(١) سورة ابراهيم : ٤

(٢) ج ١ ص ١٨٦

عندما وفد بنو نهد عليه قام زعيمهم يشكو الجذب فقال : أتيناك يا رسول الله من غورى تهامة بأكوار الميس ، ترتمى بنا العيس . نستطب الصبير ، ونستطب الخبير ، ونستعضد البرير ، ونستخيل الرهام ، ونستجيل الجهام ، من أرض غائلة العطا ، غليظة الوطا ، قد نشف المدهن ، وييس الخعثن ، وسقط الأملوج ، ومات العسلوج ، وهلك الهدى ، ومات الودى

فدعا لهم النبي قائلا : اللهم بارك لهم في محضها ومذقها وابعث راعيها في الدثر بيانع الثمر ، وافجر له الثمد ، وبارك في المال والولد .

ثم كتب معه كتابا الى قومه جاء فيه : لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة ولكم الفارض والفريش وذو الضنان الركوب والفلو الفبيس . . . ومن أراد تفسير ذلك فليرجع الى المواهب اللدنية للقسطلانى (١) .

فالتمكن من لغة القوم لا بد منه لنجاح الدعوة .

٢ - الخبرة الفنية : إن الدعوة تربية وتعليم ورعاية وتوجيه لا بد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية والأحوال النفسية ، والجاهل بهذه الطرق يخفق كثيرا

في مهمته ، فقد يضر من حيث يظن أو يعتقد أنه ينفع ، وقد يكون تصرف واحد منه قاضيا على كل جهوده .
لقد نصح النبي ﷺ معاذًا وزميله حين أرسلهما إلى اليمن قائلاً : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » (١) . ولما شكوا الناس إليه إطالة معاذ في الصلاة قال له : « أفتان أنت يا معاذ » ؟ .

ومن مظاهر الفنية في الدعوة ما روى أن عمر ابن الخطاب رضی الله عنه ، عندما بلغه أن عظيمًا بالشام يسرف في الشراب ، كتب إليه آية « غافر الذنب وقابل التوب » وآية « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا » .

وقال لحامل الكتاب : لا تدفعه إليه حتى يصحو من سكره ، ثم قال لإخوانه : ادعوا له بالتوبة . فحسن حال الرجل ، ثم قال عمر : هكذا أفعالوا إذا أردتم الدعوة ، وهذه الخبرة الفنية مستقاة من قول الله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (٢) ، وسيأتي شرح الحكمة فيما بعد .

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة النحل : ١٢٥

٣ - مما يلزم لنجاح الداعى أن يكون على خلق كريم ، وعلى هيئة غير منفرة .

(١) فالأخلاق سلاح فعال فى نجاح الدعوة ، وهى فى الوقت نفسه دعاية صامتة ، قد تغنى عن الدعاية القولية ، والأخلاق اللازمة للداعى كثيرة ، منها الصبر والتحمل ، فميدان الدعوة ميدان جهاد لا بد فيه من متاعب ومشاق ، ينبغى أن تقابل بالصبر ، ورسول الله ﷺ هو قدوة الدعاة فى ذلك ، والشواهد كثيرة زخرت بها كتب السيرة .

ومنها عدم الحرص على الدنيا ، والعفة والقناعة التى تملأ النفس رضا ، والقلب طمأنينة ، وتكف عن التفاهات والدنيا التى يتردى فيها الشرهون الحريصون ، وصدق رسول الله إذ يقول « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس » (١) .

فليكن رائد الداعى من دعوته هو رضاء الله وحب الخير للناس ، وفى الحديث الشريف « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة

(١) رواه ابن ماجة .

همه جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » (١) .

ومن الأخلاق استقامة السلوك بوجه عام في أداء الواجبات والبعد عن المنهيات ، حتى يكون الداعى قدوة للناس وحتى يجتذب قلوبهم اليه ويكسب ثقتهم به ، وحتى لا يشك الناس في صدق ما يدعو اليه اذا كان هو غير عامل به ، والثقة والمحبة من أقوى عوامل النجاح .

ومن الأخلاق اللازمة للدعاة اذا كانوا في مكان واحد الاتفاق وعدم الاختلاف ، وهذا أمر له أهميته البالغة ولعل مما يعين عليه هو الاخلاص للواجب ورعاية المصلحة العامة ، واطراح الأهواء الشخصية والأغراض الخاصة ، فان الاختلاف بين الزملاء أكبر عوامل الهدم لجهودهم ، وأول ما ينزع الثقة منهم ، ويسبب إساءة الى الدعوة بعامة . ولهذا أكد النبي ﷺ على معاذ وزميله في وصيته لهما أن يلتزما التعاون فقال « وتطاوعا ولا تختلفا » .

وما يشير الى أهمية الأخلاق في الدعوة قوله تعالى: « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا

(١) رواه ابن ماجة .

وقال : إننى من المسلمين « (١) فمدار تفضيل الله للداعى هو العمل الصالح والاخلاص فيه والاستسلام له سبحانه .

وكانت أخلاق الدعوة الى الله فى الزمن الأول من الأسباب القوية فى سرعة انتشار الاسلام ، وتقبل الناس له كما شهد بذلك المؤرخون المنصفون وكل ذلك من هدى النبى ﷺ فى قوله وفعله الذى فسر معنى الحكمة فى الدعوة ، ويحضرنى الآن من ذلك موقفه من اليهودى الذى أراد امتحانه فى أخلاقه فنجح النبى وأسلم الرجل ، ذلك أن زيد بن سعة قال : لم يبق من علامات النبوة شى إلا وقد عرفته فى وجه محمد حين نظرت اليه ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما : فكانت أتلف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله ، فابتعت منه تمرا الى أجل ، فأعطيته الثمن ، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة أتيت فأخذت بمجامع قميصه وردائه ، ونظرت اليه بوجه غليظ ثم قلت : ألا تقضينى يا محمد حقى ، فوالله إنكم يا بنى عبد المطلب مطل . فقال عمر : أى عدو الله أتقول لرسول الله ما أسمع ؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت

بسيفى رأسك • ورسول الله ﷺ ينظر الى عمر فى
سكون وتؤدة وتبسم ، ثم قال : أنا وهو كنا أحوج الى
غير ذلك منك يا عمر ، أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره
بحسن اتباع الاقتضاء اذهب يا عمر فاقضه حقه ،
وزده عشرين صاعا مكان ما رعته • ففعل ، فقلت
يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين نظرت اليه إلا اثنتين لم
أخبرهما يسبق حلمه جهله ولا تزيدته شدة الجهل إلا
حلمما •

فقد خبرتهما ، فأشهدك أنى رضيت بالله ربا ،
وبالاسلام ديننا ، وبمحمدنا نبيا (١) •

وروى أنه قال لعمر فى موقف آخر من مواقف
الدعوة التى أغلظ فيها الأعرابى ، أما علمت أن
الحليم كاد أن يكون نبيا ؟ وقد أسلم الأعرابى لهذه
المعاملة وعاد الى قومه داعيا الى الاسلام (٢) •

ومن حسن أخلاق النبى أيضا فى الدعوة أن أعرابيا
دخل المسجد فبال فيه ، فصاح الناس به مستنكرين
عمله ، فقال لهم النبى ﷺ : « دعوه ولا تزرموه »

(١) رواه الطبرانى وابن حبان والحاكم •

(٢) رواه الدارقطنى والبيهقى والحاكم •

- لا تقطعوا عليه بوله - فلما فرغ دعا بدلو من ماء فصبه عليه (١) .

(ب) وحسن هيئة الداعى ، فى هندامه الجميل ومظهره الكريم وعدم التشويه المنفر ، له دخل كبير فى تقبل ما يدعو اليه ، وفى التفاف القلوب حوله ، وهذه طبيعة بشرية لا يشك فيها أحد ، ولذلك كان رسل الله بريئين من كل ما ينفر الناس ، فمهمتهم تأليفهم لا تنفيرهم ، وتقريبهم لا إبعادهم .

وإذا لم يكن للداعى نصيب فى الحسن الخلقى الجذاب فليكن ذلك بما يستطيعه من حسن الهندام ، وقد كان لرسول الله ﷺ حلة يلبسها للعبيدين والجمعة ، كما ذكره ابن القيم (٢) ، وقال لأصحابه : « ما على أحدكم لو اشترى ، إن وجد سعة ، ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » (٣) .

ومما يدل على تأثير المظهر بوجه عام فى الدعوة ما ذكره « أرنولد » فى كتابه « تاريخ الدعوة » (٤) . إذ يقول: يتحدث سعيد بن الحسن أحد يهود الاسكندرية

(١) رواه مسلم .

(٢) زاد المعاد ج ٢ ص ١٢١

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه .

(٤) ص ٤٥٨

الذى اعتنق الاسلام سنة ١٢٣٨ م ، عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله الى الاسلام فيقول : وعندما دخلت المسجد ورأيت المسلمين يقفون صفوفًا كأنهم الملائكة سمعت هاتفا يقول : هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء بقدمها ، ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى على شعور عميق من الرهبة ، ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعنى الى النهوض ، لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة التى يتجلى الله القدير فى سجداتهم وركعاتهم ، وأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلما .

وقال رينان : ما دخلت مسجدا قط دون أن تهزنى عاطفة حادة أو بعبارة أخرى ، دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلما .

فالمظاهر الحسنة بوجه عام لها أثرها الكبير فى النفوس وبخاصة وسط قوم يحبون ذلك ، ولأمر ما أقر عمر رضى الله عنه ما رأى عليه معاوية بن أبى سفيان حين كان واليا على الشام ، ورأى ما فيه من المظاهر التى لا عهد للعرب بها ، لأنه عرفه أنه بين قوم يقدسون هذه المظاهر ، والذكى اللبق هو من عرف كيف يسيطر على القوم وبأى وسيلة ينجذبون اليه .

وبهذا تعرف أن إعداد الداعى علميا وخلقيا وفنيا له أثره الكبير فى نجاح الدعوة ، ولا يدل هذا من ترتيبات خاصة ودراسة معينة ، وتوجيهات فعالة واختيار موفق ، إن هذا الإعداد لا يكون بمثل التوجيهات العامة لفترة محدودة ، بل لا بد أن يستغرق سنين طويلة وبخاصة من أجل الاطمئنان على الناحية الفنية والخلقية ، إن بعث واحد فيه هذه المواصفات كاملة خير من ألف ينقصهم هذا الإعداد ، إن الإرساليات الدينية فى أوروبا لها معاهدها ومؤسساتها الخاصة يربى فيها الدعاة على نظام دقيق ، وبخاصة من الناحية الخلقية ، وقد يكون من الأوفق التفكير فى إنشاء معاهد لتخريج الدعاة تكون مناهجها متناسبة مع مهمتهم ، ولا يلحق بها إلا المعروفون بالملاحظة والتجربة الدقيقة أنهم ذوو أخلاق حسنة ترشحهم للقيام بهذه المهمة النبيلة .

ويعجبنى فى هذا المقام حديث للمرحوم الشيخ المراعى فى جريدة الدستور سنة ١٩٣٨ جاء فيه :

ومن لوازم الداعى أن يكون شجاعا صادقا قوى الإيمان بما يدعوا اليه ، يرمى فى الإقدام لذة وحقا للنفس الخيرة ، يؤديه احتسابا لله لا على أنه مكلف به يؤديه للأجر وزيادة الدرجات والمرتبات ، ومن حق الداعى

أن يكون بصيرا بالوسط الذى يعيش فيه ، خبيرا بأحوال النفوس ، واسع الخيلة فى التنقل من طريق الى طريق ، يقصد الهداية المطلوبة من طريقها النافع .

وليس أفعل فى النفوس من جلال تكسبه التقوى وملازمة حدود الله ، ومن جمال يلقيه العلم الناضج على صاحبه ، ومن هيبة يوجد لها الإعراض عن الدنيا وعدم الحرص عليها .

وقد شاهدنا فقراء ليس لهم جاه رسمى ولا عزة عصبية يهابهم أصحاب المقامات الرفيعة والأموال المكنوزة ، وينكمشون أمام هيبتهم التى بسطتها التقوى وزانهم بها العزيز الحكيم .

خامسا : لا بد أن تكون هناك حكمة فى الدعوة ، أى تخطيط دقيق يتناول أسلوبها وأغراضها ومعانيها وكل ما يتصل بها ، وأحسن تخطيط ما كان مستوحى من القرآن الكريم والسنة وما يضاف اليهما من التجارب والخبرات النابعة من وحى الظروف والأحداث ، قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » (١) .

فالدعوة على بصيرة أى على يقين وإيمان ، أو على علم وهدى ، وهذا العلم الذى ينير طريق الدعوة مبين

في قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » (١) . ولا أطيل عليك في ذكر ما قاله المفسرون في هذه الآية ، وعدم اتفاقهم على رأى فى معنى الحكمة وأذكر لك ما أميل اليه من هذه الآراء .

يبدو أن الحكمة هنا هى العقل والتفكير السليم الذى يضع كل شىء موضعه ، وقد أمر الله نبيه باستعمالها ليكون أساس دعوته معقولا ومقبولا ، وليكون سلوكه مع الناس سلوكا مستقيما .

ولعل هذا المعنى هو المراد من الحكمة فى قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » (٢) . لأنها آتية بعد أدلة التوحيد فى مجادلة ابراهيم مع النمرود ، وفى قصة عازر و ابراهيم والبعث ، وضرب أمثلة محسوسة للدعوة الى الإنفاق الخالص لله بالسنبال والصفوان والمطر والجنة والإعصار ، والإنفاق من الطيبات ، لأننا لا نحب أن نأخذ الخبيث فكيف نعطيه لغيرنا ، والتفكير فى أن الشيطان يعد الفقر والله يعد الغنى ، فكل هذا مما يلفت النظر ويجول فيه الفكر ، ومن اهتم بهذا النوع

(١) سورة النحل : ١٢٥

(٢) سورة البقرة : ٢٦٩

فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب ، ولعل
الحكمة بهذا المعنى هى منة الله على داود فى قوله :
« وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفضل الخطاب » (١) .

فالحكمة أن تكون الفكرة سليمة والآداء جميلا ، فهى
تشمل المعنى والأسلوب ، ثم إن المراد بالموعظة
الحسنة أن يكون الترغيب فى الخير والترهيب من الشر
بأسلوب عفيف لا فحش فيه ولا سباب مثلا ، فإن مثل
هذه الأساليب الخثنة يحدث عكس المطلوب ، قال
تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا
الله عدوا بغير علم » (٢) .

وكان هذا الأسلوب بمكة عندما كان يواجه الرسول
بدعوته العقائد الضالة والعادات الفاسدة ، ويقوم
وحده بهذه الدعوة ، والمجادلة هى المخاضمة فلتكن
بالصيغة الحسنى ، فإن سبوك فكن حليما ، وإن آذوك
فكن صبورا ، ولعل مما يشير الى ذلك قوله تعالى :
« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى
أحسن » (٣) . فاستعمل معهم طريق اللين والعمو
فذلك أجدى وأنفع .

(١) ص ٢٠

(٢) سره الاتعام : ١٠٨

(٣) سورة فصلت : ٣٤

فالأسلوب الحكيم في الدعوة له مظاهر متعددة وألوان مختلفة ، وقد يصلح لون في بلد ولا يصلح في آخر ، وقد ينفع أحدها في عصر ويضر في عصر آخر ، ومن واقع هدى الاسلام في القرآن والسنة ، ومن تجارب المختصين في الحياة أذكر هنا بعض مظاهر الحكمة في تبليغ الدعوة :

١ - من الحكمة عند اقتلاع عقيدة باطلة أو عادة فاسدة ، أو نقد وضع معين ، ألا يوجه العمل الى ذلك بطريق مباشر ، بل يتخذ له طريق لا يثير معارضة أو يوقد نار فتنة ، فإن الموروثات وبخاصة منها المقدسات الدينية ليس من السهل تحويل الانسان عنها ، فكل إنسان معتر برأيه وعقيدته ، وكل جماعة معترزة بمقدساتها ومعتدة بسلوكها ، وذلك أمر طبيعي في الجنس البشرى ، لأن مظهر الحرية والكرامة والعناد ، يظهر بوضوح عند توجيه النقد الى العقيدة والسلوك ، وقد تقدم نهى الله نبيه أن يسب الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم . وحسب الداعي الحكيم في مواجهة الباطل بعد دراسة كل الظروف أن يحاول زحزحة الناس عن ثقتهم في عقيدتهم وسلوكهم وبطريق غير مباشر ، ولعل مما يفيد في هذا المجال :

(أ) توجيه الأنظار الى نواحي الشر والفساد في عقيدة من العقائد ، أو نمط من السلوك يشبه ما يريد أن يغيره الداعى ، ثم يترك الفرصة للعقل يفكر ويقدر ، فقد ينتبه بنفسه الى مواطن الشر فيحاول باختياره أن يصلح من شأنه ، إن الله سبحانه وهو يوجه أنظار المشركين الى فساد اشراكهم بالله مخلوقات لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى من الحق شيئاً ، عدد عليهم نعمه الكثيرة وبين أنه وحده خالقها والمتفضل بها ، ولأنهم يعتقدون أنه وحده خالق كل شيء ، كما ورد في قوله : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » (١) . ولكنهم يشركون الأصنام معه في العبادة ، لما حكى الله عنهم بقوله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » (٢) . قال الله بعد تعداد النعم في أوائل سورة النحل : « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون » (٣) ؟

فإلقاء هذا الاستفهام الإنكارى يوجه أنظار المشركين للتفكير فيما هم عليه من عقيدة .

(١) سورة الزخرف : ٩

(٢) سورة الزمر : ٣

(٣) سورة النحل : ١٧

ومثله ما سلكه الاسلام في تحريم الخمر ، وكان شربها متأصلاً في العرب ، لم يشأ أن يوجه اليهم النقد المباشر ، ولكن بين لهم أنها من نعم الله عليهم فقال تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » (١) ، ولما سألوا : هل هي حرام ، اكتفى ببيان ما فيها من نفع وضر وأن الضر فيها أكبر ، وترك للعقل يفكر ويوازن ليدرك بنفسه أن ما كثر ضرره على نفعه جدير بتركه ، فالعمل الذي تفوق خسارته ربحه لا ينبغي أن يحرص العاقل عليه ، ولم يقطع الاسلام فيها برأى .

قال تعالى : يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما» (٢) . حتى إذا أدركوا خطرهما أخيراً بما وقع من خطأ في الصلاة نتيجة السكر ، وبما حدث من شجار وسباب وتعد على الأموال وغيرها طلبوا بأنفسهم بياناً شافياً فيها ، فحرمت أولاً قبل الصلاة « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (٣) .

(١) سورة النحل : ٦٧

(٢) سورة البقرة : ٢١٩

(٣) سورة النساء : ٤٣

ثم حرمت بعد ذلك نهائياً بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » ؟ (١) .

ومما يفيد أيضاً في هذا المجال الاهتمام بعرض محاسن الإسلام إن كان يدعو إليه ، أو محاسن مبدأ من المبادئ إذا كان المقصود بالدعوة هذا المبدأ ، دون أن يتعرض لذكر مساوئ نقيضه فليتركها ليذكرها السامع بطريق المفهوم ، وفي هذا العمل بناء من جانب الداعى وهدم للمبدأ الفاسد من جانب المدعو ، والبناء القوى إذا ظهر بصورة رائعة تداعى غيره أو قل شأنه على الأقل .

ويقول المثل الغربى : بدل أن تلعن الظلام أوقد شمعة ، ذلك أن لعن الظلام جهد ضائع لا يذهب به ، ولكن الذى يذهب به هو عمل ايجابى فى مقابلته ، وهو إضاءة الشمعة ، فذكر المحاسن لمبدأ يعطى فرصة للمدعو أن يفكر فى مبدئه وقيمه بالنظر لما يراه

ويسمعه ، وهناك يكون تحوله للمبدأ الجديد عين
اقتناع دون إثارة شعور أو مضاعفات غير حميدة .

٢ - ومن الحكمة عرض التشريع مبسطا والعقيدة
واضحة عند الدعوة الى الدخول في الاسلام ، والحذر
من تعقيد الأسلوب واستعمال الوسائل الصناعية
الملتوية التي تشوه طبيعة الأشياء وتخرجها عن
بساطتها الفطرية الى عمل مصنوع معقد .

والعقيدة الإسلامية مبسطة وواضحة لأنها قائمة
على العقل ، وأدلتها منثورة في الكون كله ، ألم تر
الى الأعرابي عندما سئل عن وجود الله فقال : البعرة
تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير فسماء ذات
أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا
يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟ . ولما سأل النبي أمة
عن الله فأشارت الى السماء حكم بإيمانها .

إن بساطة الأعرابي في الاستدلال على وجود الله
لا تزيد عنها فلسفة « نيوتن » عالم القرن الثامن عشر
(توفي ١٧٢٧م) عندما سئل عن وجود الخالق فقال :
من الجلى الواضح أنه لا يوجد أي سبب طبيعي يمكن
أن يعزى اليه توجيه جميع الكواكب وتوابعها للدوران
في وجهة واحدة وعلى مستوى واحد دون أن يحدث
فيها أي تغيير يذكر . فمجرد النظر لهذا التدبير يشعر
بوجوب وجود قدرة إلهية تحدته .

فالعقيدة الاسلامية تنادى على نفسها بالصدق ولا تستعصى على الفهم . وكانت بساطتها سببا في تقبل الناس لها ، يقول « أرنولد » : إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة ، وإنها لتدخل في نطاق أحط دركات الفهم والفتنة ، ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية كان من الممكن أن يشرحها أى فرد ، حتى أقل الناس خبرة بالعبادات الدينية النظرية (١) . وقد تقدم لك ما ذكره «كيتانى» عن سر تحول أهل الشام الى الاسلام .

٣ - ومن الحكمة عند دعوة الناس الى اعتناق الاسلام عدم التشدد في أخذهم بمبادئه من أول الأمر ، ومراعاة التساهل الى حد ما حتى تألفها النفس الغريبة عنها وتعودها ، وستنقاد اليها طواعية بعد ذلك .

وقد رأينا في وفد ثقيف أن النبي ﷺ قبل منهم الشهادتين والصلاة ، وحط عنهم الزكاة والجهاد مؤقتا كطلبهم حتى يألفوهما .

ثم ذكر أنهم سيصدقون ويجاهدون من تلقاء أنفسهم وقد كان ذلك (٢) .

(١) تاريخ الدعوة ص ٤٥٤

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

وجاء رجل الى النبي ﷺ فقال بعد أن تعلم منه ما تعلم : علمنى رسول الله وكان فيما علمنى : « وحافظ على الصلوات الخمس » . قلت : إنها ساعات لى فيها أشغال ، فمر بأمر جامع إذا فعلته أجزأ عنى . فقال : حافظ على العصرين ؟ قال « صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها » (١) .

وكان هذا التخفيف من النبي بصفة مؤقتة حتى يتعود الرجل الصلاة . إن الذين يريدون للداخلين حديثا فى الاسلام أن يؤدوا مرة واحدة كل ما جاء فيه من تكاليف ، قوم لا يعرفون طبيعة البشر ولا منهج الدعوة ، إن سياسة التدرج فى حركة الإصلاح ، والبعد عن الطفرة يفسرها قول عمر بن عبد العزيز لابنه عندما لامه على ارجاء تنفيذ بعض ما يراه حقا ، أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيرفضوه جملة .

وقد كان الختان من الأمور التى خشىها المنبوذون فى الهند عندما دعوا الى الدخول فى الاسلام ، كما قررتة البعثة الأزهرية الموفدة اليها سنة ١٩٣٦ ، فصدرت الفتوى بما أذهب مخاوفهم والدين يسر .

٤ - ومن الحكمة فى الدعوة القصد الى الرعوس

(١) رواه أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه .

الكبيرة والشخصيات الهامة لأن استجابتها ستجبر وراءها استجابة الأتباع والبسطاء بتأثير عامل التقليد أو بحكم العلاقة بين الكبير والصغير والرئيس والمرعوس .

وكان بود النبي ﷺ أن يسلم كبار قومه ولكن الله أخبره أنهم لن يستجيبوا له الآن ، وسيدخلون في الاسلام عندما تنهيا الظروف ، وكان ذلك في فتح مكة بعد إحدى وعشرين سنة من بدء الدعوة .

لقد كتب النبي الى الملوك والكبار رجاء أن يسلم أقوامهم بإسلامهم ، ولما عرض جمال الدين الاسلام على « تغلق تيمور خان » ملك « كشغر » (١٣٤٧ - ١٣٦٣ م) اقتنع به ثم قال له : لا أستطيع أن أهدى أتباعي الى الاسلام حتى يؤول الملك العام الى بعد توحيد الإمارات ، وقد كان ذلك ، فدعا الأمراء فقبلوا ، وطلب أحدهم مبارزة الداعي الى الاسلام لخدمته فقبل التحدى وانتصر فأسلم الأمير وأسلم في ذلك المشهد مائة وستون ألفا ، وأصبح الدين الإسلامى منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء « جفطاي » (١) .

فهداية رجل كبير تهدي مئات وألوفاً من الأتباع ،
والجهد في مثل هذه الحالات جهد مشعر .

وكان من حيل المستعمرين في حمل الشعب على
مذهب أو سلوك معين أن يولوا أعوانهم المناصب
الكبيرة حتى يقلدهم الأتباع والمرعوسون ويستجيبوا
لتوجيهاتهم ، إما عن عقيدة ، وإما لمجرد المتابعة التي
قد تتطور بمرور الزمن الى اعتقاد .

٥ - ومن الحكمة أن يكسب الداعى صداقة الكثيرين
ممن تظن منهم المعارضة له أو عدم تيسير مهمته ،
وأن يتفطن لمنافذ الشر التي تقف في طريق دعوته
فيسدها أو يتجنبها بطريقة سلمية لا تشير فتنة ،
فالدعوة حرب ، والحرب خدعة لا بد فيها من التحايل
البريء لشق الطريق بأمان .

وهذه مداراة لا بأس بها ، ولنا في قول رسول
الله ﷺ في شأن عيينة بن حصن الفزارى حين رآه مقبلاً
عليه « بئس أخو العشيرة » فلما جلس الرجل تطلق
النبي في وجهه وانبسط اليه ، ولما سألته عائشة عن سر
هذا المسلك قال : « متى عهدتني فأشأ ، إن شر الناس
عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء
شره » (١) .

(١) رواه البخارى .

وقد قال العلماء : إن هذا السلوك مداراة بذلت فيها الدنيا لصالح الدين أو الدنيا أو هما معا ، وهى مباحة وليست مدهانة يبذل فيها الدين لصالح الدنيا فهى مذمومة (١) .

٦ - ومن الحكمة حسن اختيار الموضوع الذى يتحدث فيه الداعى ، أو المبدأ الذى تتراد الدعوة اليه بوسيلة من الوسائل ، فالموضوعات والمسائل تختلف من بلد الى بلد ومن زمن الى آخر ، وليكن الموضوع منتزعا من واقع البيئة وحكم الظروف ومتطلبات العصر ، لا ما يختاره الداعى حتى لو كان غير مناسب لمقتضى الحال . والنبي ﷺ كان إذا سأل سائل أجابه عن أهم الأمور التى تناسبه ، وإذا طلب منه وصية أوصى بما يصلح شأنه ، إن الموضوعات التى تناقش مثلا فى أوروبا غير التى تناقش فى وسط إفريقيا ، والموضوعات التى تثار فى البلاد الرأسمالية غير التى تثار فى البلاد الاشتراكية ، وما يصلح للبدو لا يصلح للحضر ، وهكذا . ومن أهم ما يعالج من موضوعات ما يأتى :

(أ) الرد على الشبه التى يثيرها المستشرقون والمبشرون وأصحاب النحل والمذاهب الهدامة ،

(١) المواهب للقستانلى ج ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

والمتحررون الذين يميلون الى اللادينية ومن داروا في
فلكهم لنبيين وجهة نظر الاسلام فيها .

فإذا كانت هناك شبه تطعن مثلا في مبادئ الاسلام
كعامل من عوامل النهضة والرقى ، وتربط بين تأخر
المسلمين وبين مبادئ الدين . فعلينا أن نبين سلامة
المبدأ من حيث ذاته ، ونبين السبب في تأخر المسلمين
عن غيرهم من الأمم ، وهى أسباب خارجة عن نفس
التشريع ، فهى إما لسوء فهم للمبادئ أو جهل بها ،
أو تعلق بغيرها والى جانب الرد على الشبه يجب أن
نفيد من توجيهها اليها فنضع الحلول التى ترد عمليا
على هذه الشبه بالتمسك بمبادئ الدين وتطبيقه
تطبيقا صحيحا .

فمن الشبه مثلا ما يتعلق بالقرآن من ناحية جمعه
وترتيبه وكتابته وقراءته ، ومن نسبته الى النبى وعدم
نسبته الى الله ، كما أثار ذلك حديثا القس «ريكيه»
في محاضرة ألقاها بجنيف فى قاعة القديس بطرس .
ومن الشبه منافاة بعض مبادئ الاسلام للمدنية
كتحريم الربا ، وإياحة الطلاق ، وتعدد الزوجات ،
فتجب العناية بالرد على هذه الشبه ، وتزويد العلماء
بالثقافة الواسعة لإمكان مواجهة هذه الأباطيل .

(ب) ويجب تفسير حقائق الاسلام تفسيراً علمياً
عصرياً يتصل بالثقافات الحاضرة ، ويوازن بينها
وبين ما انقضت اليه هذه الأبحاث وقررت التجارب ،
وشرح المفاهيم باللغة والمروح الشئ تناسب العصر
ووضع دائرة معارف إسلامية ذات دراسة عميقة على
هذا الأساس لتكون مرجعاً صادقاً للراغبين في المعرفة
الدينية الصحيحة وسلاحاً تدفع به الشبهات والشكوك .
إن الاسلام ما يزال بكراً من هذه الناحية ، لم يسبر
غوره ولم يؤت هلى جميع حقائقه ، وما أكثرها ،
والثقافات والحضارات فى تطور وتغير ، فإن كانت
العصور الماضية أفادت من الاسلام وكتابه بما يلائمها
وفسرتة بما كان عندها من ثقافات ، فإننا الآن فى حاجة
الى شروح وتفسيرات بلغة العصر وحاجته .

يقول (ولفرد كانتويل سميث) : كل السكتب
والأحاديث التى تتصل بهذا الدين تتخذ موقف الدفاع
وتهدف الى حماية دمار الاسلام أكثر مما ترمى الى
شرحه وفهمه ، وترمى الى دعمه ومظاهرتة أكثر
مما ترمى الى بيانه وكشفه ، وهذه الحقيقة فى تشعبها
البعيد هى علة سوء التفاهم بين المسلمين والغربيين ،
وهى السبب فى أن غير المسلمين يسيئون فهم الأفكار
الاسلامية الحديثة .

والواقع أن كلا من الجانبين لم يدرك الموقف إدراكاً تاماً ، فالمسلمون يأخذون قضايا الدين بتسليم ولا يقبلون سواها ، على حين تجد الغربيين يؤمنون بالتفسير العقلي ، وهذه الطريقة التي يتبعها المسلمون في تقبل دينهم تفسد تقدير الغربيين للإسلام الحديث وتقف حائلاً أمام المسلم في صراعه ضد الصعوبات الدينية الحديثة التي يواجهها .

ومع عدم تسليمنا بهذا الكلام على إطلاقه ، فإننا نريد أن لا ندع مجالاً لمثل هذه الانتقادات ، فنفسر إسلامنا تفسيراً علمياً حديثاً يتناسب مع الثقافات الحاضرة ليعيش معها ويظهر سموه عليها .

(ح) يجب تنقية الإسلام من كل دخيل عليه في عقائده وعباداته وأخلاقه وسائر تشريعاته ، فإن هذا الدخيل يشوه جماله ويظهره بصورة ممسوخة أمام الأجانب ، تزهدهم فيه وتحملهم على توجيه الطعون إليه ، وإشاعة أنه دين لا يستطيع أن يقف أمام العقل والمنطق وجقائق العلم ، وبالتالي لا يتجاوب مع الحياة في سننها الكونية الثابتة ومقرراتها الأكيدة .

ولعل من الخير أن يتجه الإصلاح إلى الطوائف المتجرة بالدعوة إلى الإسلام عن غير علم صحيح

بحقائقه ، إنهم يدخلون عليه كثيرا من الخرافات لاستمالة السذاج اليه ، في الوقت الذي يباعدون بينه وبين العقلاء المتعطين الى دين صحيح نظيف .

وإنصافا للحقيقة نقول : إن كثيرا من طلاب العلم الوافدين الى الأزهر من أطراف أفريقيا ووسطها التي انتشر الاسلام فيها بطريقة أولية ، يعودون بعد تخرجهم حاملين شعلة الاصلاح الى أقوامهم ويزيلون هذه الملصقات من جوهر الدين .

وكانت السلطات الاستعمارية تضطهد هؤلاء الطلاب الذين يفتحون عيون الأهالي على الحقيقة الاسلامية النقية ، محاولين إبقاء الناس على جهلهم وضلالهم حتى يضمنوا استمرار التسلط عليهم وسهولة انتزاعهم من هذا الدين المشوه .

كما يجب أن نتنبه الى خطر الطوائف التي نشأت في المجتمع الاسلامي كالقاديانية والبهائية ، وبيان ضلال الأسس التي قامت عليها ، وتبرئة الاسلام مما شوها به جماله .

سادسا : لا بد أن تنشر الدعوة بكل الوسائل الممكنة التي أعرض منها ما يلي :

١ - ترجمة معانى القرآن ترجمة صحيحة بالقدر الممكن بعد وضع تفسير مبسط له لا يحمل اتجاهات معينة ، وستكون هذه الترجمة مصححة للترجمات المباشرة للقرآن التى تحمل كثيرا من الأخطاء ، على أن تنشر هذه الترجمة بعدة لغات هامة ، وإن لم تيسر هذه الترجمة فلتوضع كتب مبسطة فى مبادئ الدين بلغات البلاد التى تحتاج الى هذا القدر المبسط لتعرف شيئا عن الاسلام فتؤمن به .

٢ - دعم الصحافة الاسلامية وتزويدها بالترجمات الهامة لمبادئ الدين ، والرد على الشبه الموجهة اليه ، وتفسير حقائقه تفسيراً علمياً عاصرياً ، وتعنى بأخبار العالم الاسلامى ، وتقديم الدراسات الكافية للإفادة منها فى مجال الدعوة ، وذلك كنشرة « فيدس » للأنباء التبشيرية التى تصدر أسبوعياً من مركز التبشير فى (روما) وتطبع بعدة لغات وترسل مجاناً لكثير من الجهات .

٣ - يحسن أن تكون هناك إذاعة خاصة ذات برامج دينية تعنى بالموضوعات الهامة التى تصلح للبلاد المختلفة وتكون موجاتها موجهة بلون ثقافى الى المنطقة المناسبة لها ، باللغة التى تعرفها هذه المناطق ، على أن يكون الاشراف على هذه الاذاعة إشرافاً دقيقاً من

مختصين أمناء يخططون تخطيطاً يتناسب مع الغرض الذى أنشئت من أجله .

على أن تكون إذاعة موحدة لتكون الفكرة المنبثقة عنها واحدة ، فإن لم يمكن ذلك ، ينبغى أن تتولى الاذاعات المختلفة فى البلاد الاسلامية هذه المهمة ، فى برامج خاصة بها ، على أن يكون هناك جهاز تنسيق لها ، متفرع من الجهاز العام للدعوة الذى تقدم ذكره .

٤ - ينبغى أن تعقد لقاءات متكررة لرسم السياسة العليا للدعوة ، بعد تقديم تقارير وافية يستفاد منها فى وضع البرامج للمراحل المقبلة ، كما هو متبع فى مركز التبشير العالمى فى روما ، ولو اتخذ موسم الحج مثلاً فرصة لعقد مؤتمر من هذا النوع كان ذلك أيسر وأقل تكلفة وأدعى الى الاخلاص فى العمل الذى يجتمع المؤتمرون من أجله - وقد يكون من الأوفق أن تنبثق من مؤتمر مجمع البحوث لجنة تخطط للدعوة على ضوء التقارير الواردة والتجارب الواقعة .

٥ - أن تنشأ مراكز اسلامية للدعوة فى أنحاء العالم ، تراقب عن كثب أفكار الناس عن الاسلام لتصحيح الأخطاء ، وتظهر محاسنه ، على أن تعطى هذه المراكز إمكانيات وتسهيلات واسعة لمباشرة نشاطها ،

فهى تعتبر محطات تقوية لإذاعة الهداية الاسلامية من مراكزها الإصلية فى البلاد الاسلامية ، ومنطلقا جديدا للدعوة والدعاة ينبثون منه فى الجهات المحيطة بها على أن تكون هذه المراكز وحدة شاملة ، أو صورة مصغرة للمراكز الكبرى الأصلية ، ففيها صحافة وكتب ومحاضرات ، ومدرسة لتعليم الدين واللغة وما الى ذلك من أنواع النشاط .

٦ - التوسع فى إرسال البعوث الى كافة أرجاء الدنيا بعد إعدادهم على النحو الذى تقدم ذكره .

٧ - التوسع فى المنهج وقبول الطلاب الوافدين من أطراف العالم لتلقى العلم فى المعاهد والجامعات الدينية فى البلاد الاسلامية لأن هؤلاء سيعودون الى بلادهم وهم دعاة للدين ، ويقومون بنشاط قد يكون أعظم من نشاط المبعوثين الموفدين الى هذه البلاد ، وذلك لأمر :

(ا) أنهم أعرف بلسان قومهم وعاداتهم وجميع أحوالهم ، وقد عرفنا أثر هذه المعرفة فى نجاح الدعوة .

(ب) عدم تكليف الجماعة الاسلامية أموال طائلة وإمكانيات كبيرة ، فالطالب سيعود الى بلده داعيا بتكاليف أقل كثيرا جدا من المبعوث وبجهد أقل .

(ح) أنهم مستقرون في بلادهم غير قلقين ، لا تصرفهم عن التفرغ للدعوة ارتباطات أخرى ولا عوامل ضاغطة من حنين الى وطن أو عدم ملاءمة جوه • أو غير ذلك مما يعرض للمبعوث المتغرب عن بلده المرتبط بروابط كثيرة ، وعامل الاستقرار له أهميته البالغة في الدعوة •

٨ - لا بد أن تدبر الأموال اللازمة للقيام بهذا النشاط العظيم ، والخبراء في هذا المجال لهم آراؤهم ندع ذلك لخبرتهم وعامل المال من أهم العوامل ، إن لم يكن أهمها ، في نجاح كل مشروع ، وبخاصة مثل هذا المشروع العظيم ، وهو جهاد في سبيل الله ، رغب الاسلام في بذل أقصى ما يستطيع فيه من مال وجهد ، فما كان الجهاد إلا لنشر الدعوة وتأمين طريقها وحماية الحريات ودعم أركان السلام ، وياحبذا لو كان هناك صندوق عام يمول من كل الأقطار الاسلامية للجهاز الموحد الذي يشرف على الدعوة ، أو يا حبذا لو زيدت في ميزانية كل دولة المبالغ المرصدة لهذا العمل الجليل •

٩ - وإذا كان كل مسلم يشعر بأنه مكلف بالدعوة الى الله بالقدر الذي يعرفه ويستطيعه ، فإن كل مسلم وجد بين جماعة غير مسلمين ، أو جماعة مسلمين محتاجين الى التفقه في الدين يجب عليه أن يؤدي

واجب الدعوة فيهم بما يحتاجون اليه ، يستوى في ذلك الطلاب الموفدون من البلاد الاسلامية للتعلم في البلاد الأجنبية والخبراء والسفراء والملحقون والزائرون والتجار والسائحون وغيرهم من كل من يمكنه أن يدعو الى الله .

وإن للطرق الصوفية جهدا كبيرا في نشر الدعوة في أفريقيا وآسيا على ما علمت من عرضنا لحركة الدعوة، إلا أنه ينبغي أن توجه توجيهها صالحا بإبعاد العناصر المتجرة بالدعوة ، وتنقية بعض أفكارها التي لا يوافق عليها الاسلام ، ولو أنها زودت بالعلماء الذين يصحبونها في اجتماعاتها وتحركاتها كان لها أثر عظيم في نشر الاسلام الصحيح .

وينبغي التنبيه الى أن هناك بعض الأفراد ينتحلون صفة الدعاة يطوفون بالعالم الاسلامي وغيره ، لا يريدون بذلك إلا كسب العيش وليس لهم من العلم قدر يساعدهم على الدعوة الصحيحة ، وقد اتخذت إجراءات في بعض البلاد الاسلامية لمنع أى أحد من أفرادها من السفر لنشر الدعوة إلا بعد تقرير من لجنة معتمدة من العلماء يثبت صلاحيته للدعوة ، والاسلام ينهى عن التصدى للدعوة بغير علم فذلك

كذب وافتراء على الله ورسوله وبالقتالى ضد عن سبيل
الله لأنه يشوه جمال الدين .

سابعاً :

من أهم ما يساعد على قبول الناس لدعوة الاسلام
أن يكون العمل بالدين ومبادئه واقعا حيا في المجتمع
الاسلامى ، فالعمل بالدين أكبر دعاية له ، ولو أراد
المسلمون أن يعرضوا على الأجانب هذا الدين على
أنه الأنموذج الكامل لنظام الحياة لقليل لهم فى صراحة
وبكل بساطة .

لو كان فيه خير لاتخذوه نظاما لحياتهم ، بل إنه
سيقال لهم : لو كان الاسلام خيرا لسعد به معتنقوه
ونهضوا ، ولكن واقع حياتهم يتناقض مع دعواهم .

وقد حدث أن « فلاديمير » ملك روسيا أراد أن يبحث
عن دين غير الوثنية التى كان يدين بها ، فانتهد دعاة
كل دين الفرصة ليدخلوه فى دينهم ، فلما حاول اليهود
أن يهودوه ، وكانوا قد جاءوا اليه من بلاد الخزر
على بحر قزوين ، سأل عنهم وهن تاريخهم فعلم أن
الله شئت شملهم ، وأبعدهم عن بلادهم بيت المقدس ،
فقال لهم : لقد بؤتم بلعنة الله ومع ذلك تريدون أن

تعلموا غيركم ؟ اذهبوا فضعن لا نريد أن نشرد كما
شردتم .

إن تطليق المسلمين لمبادئ الدين تعطيهم شخصية
مستقلة ومدعمة الاستقلال وعميقة الجذور ، يأمنون
معها أن تؤثر عليهم التيارات الفكرية والمذاهب
المختلفة التي يعج بها المحيط الدولي ، ويستحقون
بمجدارة أن يكونوا مصدرين لمبادئ الحق والخير ،
لا مستوردين لها ، والاسلام غنى بكل أسباب السعادة
لا يجمل بالمسلمين أن يتركوه الى نظم أخرى وقد
أثبت واقع التاريخ الاسلامى فى عصوره الزاهرة أن
الاسلام أعظم نظام لسعادة الجنس البشرى ، وشهد
بهذه الحقيقة كبار المنصفين من الباحثين والكتاب
المغربيين ، فلا ينبغي أن يزهد المسلمون فى إسلامهم ،
ويعرضوه على غيرهم من الأمم ، كأنه عملة قديمة
لم تعد لها قيمتها أو متاع قديم لا يصلح للحياة
الجديدة نريد أن نبيعه لغيرنا .

خاتمة

وبعد فهذا عرض سريع للدين العالمى وهو الاسلام، وبيان موجز لمنهج الدعوة اليه ، يجب علينا أن نبليغه للناس فإن أكثرهم لا يعرفون مبادئه الحقّة ، ولم يفهموها على وجهها الصحيح واذا كان الجهل بها متفشيا فى الأوساط الاسلامية فمن باب أولى من هم بعيدون عن الاسلام ولا يصلهم منه إلا معلومات ناقصة أو مشوهة .

إن فى الناس فراغا روحيا وقلقا نفسيا فى هذه الأيام بعد كثرة الحروب ومخلفاتها المؤلمة ، وبعد الصراع المادى والتنافس المسعور على الغلب والنفوذ الذى وقع فريسته كثير من المستضعفين ، وليس إلا الدين سكنا لنفوسهم وطمانينة الى قلوبهم ، وشرحا لصدورهم بالأمل فى تفريج الكرب وتحول الحال ، فلتكن هديتنا الى هذه النفوس القلقة والأعصاب المتوترة غذاء روحيا تسكن به نفوسهم وتطمئن ، نبليغه لهم نقيا صافيا خالصا ، حلوا عذبا ، مشرقا لامعا .

إن فى العالم تيارات وأفكارا متضاربة تحاول أن تطغى على الأديان عامة ، ويخشى منها على المسلمين

أن يفتنوا بها عن دينهم ، فالواجب علينا إبراز قوة الاسلام وعظمته ومثانة نظامه الروحي والاجتماعي لتحسين المسلمين ومقاومة هذا الغزو الجارف للآراء والمذاهب المتطرفة .

لا ينبغي أن نقف مكتوفي الأيدي أمام الهجمات التي توجه الى الاسلام ، ولا موقف المتفرج من حركات التبشير ونشاط الدعوة الى الأديان التي لا تملك من عوامل القوة الذاتية ما يملكه الاسلام .

إن العدو يبدي مخاوفه الشديدة من الاسلام ، لأنه يدعو الى وحدة اسلامية ليس من صالح الاستعمار أن توجد لأنها تعرقل خطته الاستغلالية للشعوب . وهو يخشى أشد الخشية من نشاط الأزهر الشريف بالذات في ميدان الدعوة الاسلامية ، فقد كتب المختص بالبحث عن الأديان في مجلة « لايف » يقول : إن الاسلام الى زمن متأخر لم يكن له جماعات منظمة للتبشير ، لأن هذا الدين الذي جعل المسلم في غنى عن الوساطة بينه وبين ربه ، قد جعله كذلك واعيا الى دينه حيث كان ، وإن لم تكن له جماعة ينتمى اليها ، ويتقيد بنظامها لنشر الدعوة ، إلا أن الدلائل تشير الى عناية حديثة من جانب المسلمين بأنظمة التبشير ،

وقد أصبح الجامع الأزهر ، ذلك المعقل الثقافى الذى صمد للتيارات الغربية ، ينشط الآن لتدريب فئة قليلة من أبنائه كل سنة للعمل فى هذا الميدان (١) .

فلنحث الخطا فى طريق الدعوة الى هذا الدين الذى قال الله فيه : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه » (٢) وقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرهه المشركون » (٣) .

وليبق الأزهر منارا للدعوة الاسلامية العالمية ومستعينا بالله فى أداء رسالته ، فهو نعم المولى ونعم النصير ،،،

(١) مجلة الأزهر مجلد ٣٢ ص ٦٤٠

(٢) سورة آل عمران : ٨٥

(٣) سورة التوبة : ٣٣

الفهرس

الصفحة	الموضوع
	تقديم لفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد الله بركة
٣	الامين العام لجمع البحوث الاسلامية
٦	مقدمة
١٠	معنى عالمية الدين
١٦	الاسلام هو الدين العالمى
٣٩	الرسول يبلغ الدعوة العالمية
٦٥	المسلمون يبلغون الدعوة العالمية
١٠٨	جبهات المقاومة لعالمية الاسلام
١٣٩	جبهات الدفاع عن عالمية الاسلام
١٤٨	العرب والرسالة العالمية
١٦٣	واجبنا نحو الدين العالمى
١٦٩	منهج الدعوة الى الدين العالمى
٢١٨	خاتمة